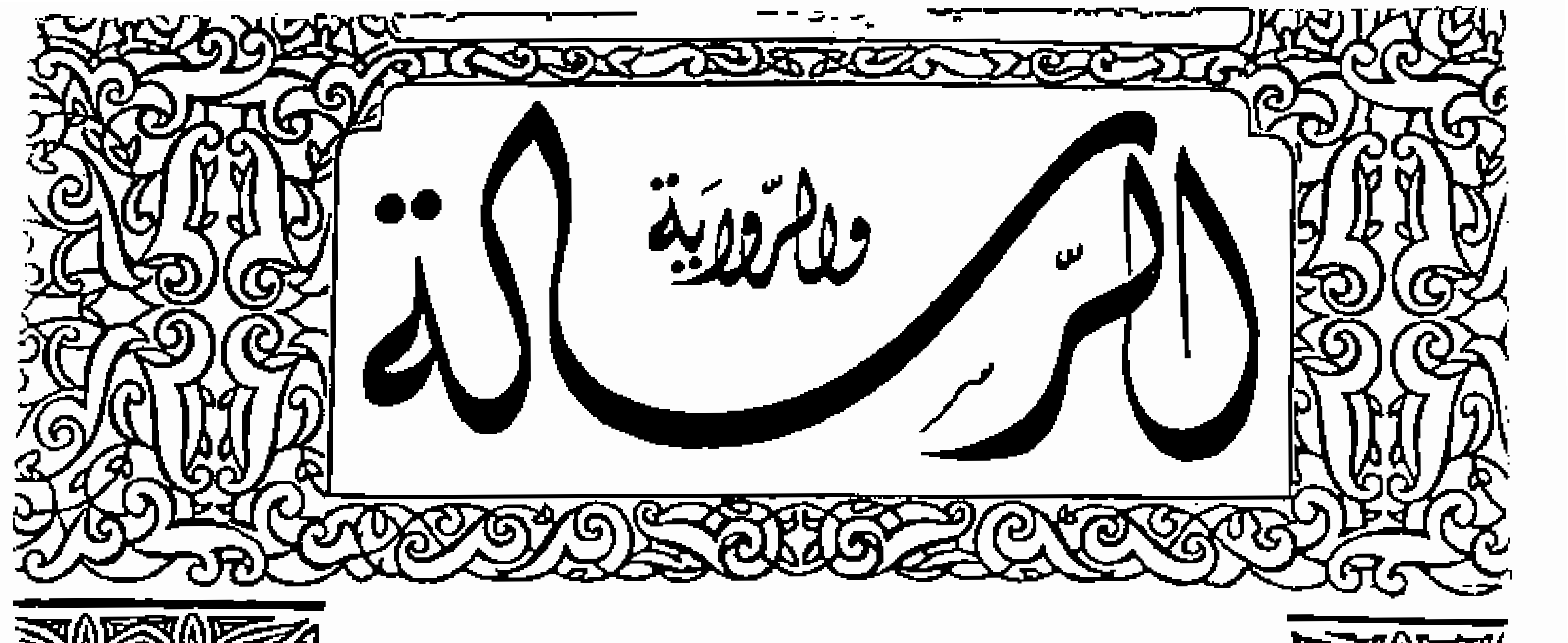


فهرس العدد

صفحة

أمم حائرة — المرأة والانتخاب : لصاحب العزة الدكتور عزام بك ١٠٢١

قبلة تتزوج ... ... : الأستاذ كامل محمود حبيب ... ١٠٢٤

مثل من فهم الشعر القديم في بحث أدبي جامعي ... ... } الأستاذ أبو حيان ١٠٢٦

ابن الأثير ... ... : الأستاذ أحمد أحمد بدوي ١٠٢٨

حرارة الصيف بين العلم والأدب : الأستاذ ضياء الدخيلي ١٠٣٢

رثاء الفنان ... ... (قصيدة) : الأستاذ الشاعر علي محمود طه ... ١٠٣٥

مالتوس ومشاكل السكان في العالم : الأستاذ فؤاد طرزي ١٠٣٦

« تعقيبات » : « كاهن شاء » للأديب اللبناني سهيل ادريس — « من ١٠٣٩

وراء الأبد » ورسالة من شرق الأردن — لفتة إنسانية للأستاذ العقاد ... ١٠٤١

« الأدب والفن في أسبوع » : نحن وأدباء المهجر — تقدير ١٠٤٢

وثبات — كشكول الأسبوع — قضية « عيسى بن هشام » والإذاعة —

خمر وجمر ١٠٤٤

« البريد الأدبي » : رد وتصحيح — الألفاظ بين الحقيقة والمجاز — ١٠٤٥

تعقيب على « تعقيبات » ١٠٤٦

« القصص » : صديقان حميمان — للكاتب الإيطالي لويجي بيراندللو:

ترجمة الأستاذ محمد فتحي عبد الوهاب ١٠٤٩

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

17e Année No. 834

Lundi — 27 — 6 — 1949

بدل الاشتراك عن سنة

مص

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة



ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire

Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٨٣٤ « القاهرة فى يوم الاثنين أول رمضان سنة ١٣٦٨ — ٢٧ يونيو سنة ١٩٤٩ » السنة السابعة عشرة

٩ — أمم حائرة

المرأة والانتخاب

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

وزير مصر المفوض بالمملكة السعودية

ثار جدال واشتد نزاع على اشتراك المرأة فى الانتخاب. وحسبي فى هذا المقال أن أصور للقراء جدالا فى مجلس ضم جماعة من أولى العلم تختلف آراؤهم فى هذا الشأن.

تحدث حاضرو المجلس فى بعض ما نشر فى الصحف تأييداً لمطالبة المرأة، أو المطالبة لها بالانتخاب، وإنكاراً لهذه المطالب.

فبدأ أحد المتكلمين الجدال إذ قال:

« حقٌ للمرأة كيف يجحد، وكرامةٌ لها كيف تهان، ومشاركة فى تدبير أمور الأمة كيف تحرم عليها؟ لا أرى لمنكر حجة، ولا لمخالف عذراً ».

قال أحد المتحدثين: « وددت أنَّا تجنبنا هذا الحديث فى هذا المجلس، ولكن صاحبنا لا يجد لمنكر حجة ولا لمخالف عذراً، فحق علينا أن نبيّن حجتنا وعذرنا.

إنا نعوذ بالله من السياسة ومكايدها، وعصبية الأحزاب وطرائقها، وتحيز الصحف وجدالها.

ونعوذ بالله أن تسابق المرأة فى هذا المضمار، وأن تَصلى بهذه النار. ونعيذها بالله أن تشغل نفسها بهذا اللجاج، وأن تزج نفسها فى هذا المجاج، ونحذر أن تعد ضوضاء السياسة إلى سكينة البيت، وخلافُ الأحزاب إلى وفاق الأسرة.

إن من شئون الأمة شئوناً ينبغى أن تُنزَّه عن الجدال، وتُصان عن النزاع والخصام، ويكتنفها الوفاق والوئام، وتحوطها السكينة والسلام، وأولها شئون الأسرة.

إنا لا نرضى لطلبة العلم أن يعملوا فى السياسة فيتفرقوا شيعاً، ونود أن تكون معاهد التعليم للأمة كلها، يجمع طلابها الحق، ويؤلف بينهم العلم، ويؤكد أخوتهم التعاون على كل بر، والجهاد لكل خير. وقد خبرنا من عمل السياسة فى الطلبة ما خبرنا، وبلونا من شرها ما بلونا.

وإن الأمم تنأى بالجيوش عن معارك السياسة وخصومات الأحزاب، لأنهم للوطن كله، وللأمة جميعها، والوطن واحد والأمة واحدة.

ونعوذ بالله من جند يختلف أحزاباً ويتفرق طرائق! إن الجند سياج الوطن المنيع، وحرزه الحريز، ينبغى أن تجتمع قلوبهم وألسنتهم وأيديهم على الذود عن ديارهم، لا تفرقهم الأهواء، ولا تقسمهم النزعات.

وشئون أخرى للأمة لا تصلح إلا باجتماع الرأى فيها، واتفاق القلوب عليها. وشئون الأسرة أولى هذه الشئون بالتنزه من

التحزب ، والتطهر من التعصب .

والمرأة ربة الأسرة ، وملكة البيت ، تنشر فيهما السلام والسكينة ، وتبعد عنهما النزاع والضغينة ، فتربّى أولادها للوطن كله ، وتنشّىء ناشئتها للأمة جميعها . مثّل لنفسك زوجين اجتمعا على مائدة ، وقد تعصب كل منهما لحزبه ، وجادل عنه ، وذكر حزب الآخر ونال منه ، واستمع الأولاد لجدال الأبوين ، والجدال طريق الخصام ، والخصام رسول العداوة والبغضاء . ثم انظر كيف تكون العاقبة .

هذا جانب واحد من جوانب عمل النساء في السياسة ، وآفة واحدة من آفات تعصبهن ، ودخول التحزب إلى بيوتهن .

نناشدكم الله والوطن أيها الدعاة أن تدعوا لنا المرأة نسكن إليها من ضوضاء العيش ، ونفر إليها من خلاف المذاهب ، ونستريح عندها من جدال الأحزاب ، ونتملى في جوارها الحب والود ، والسلام والبر .

نناشدكم ألا تجعلوا من كل أسرة لجنة حزبية ، أو لجاناً متعددة لأحزاب مختلفة ، وألا تنقلوا الجدال والخصام ، والافتراء والبهتان ، إلى المعبد الذي نأوى إليه ، ونلتمس الدعة والسكينة والألفة والمحبة فيه .

حسبنا — أيها الإخوان — هذا النزاع الدائم ، والدوىّ المستمر الذي نلقاه في كل طريق ، وكل ندىّ ، ونقرؤه في كل صحيفة ، ونسمعه في كل مذياع . فنحن منه في شغل بالنهار وهمّ بالليل .

دعوا المرأة تتزوّد من العلوم والآداب والأخلاق ، وأبعدوها من هذا المعترك لتكون داعية وفاق ورسول مودة ، ولتكون — كما خُلقتْ — مصدر خير وبر ، وألفة وحب .

قال الأول — وقد احتدّ قليلاً — : « إنكم إذاً تحرمونها المشاركة في أمور الأمة ، وتحرمون الأمة تدبير المرأة ، وهي — كما تعترفون — مصدر خير وبر وألفة ووفاق ، فلماذا تحرمون الأمة من برّها ووفاقها في بعض شئونها ؟ »

فأجابه مناظره : « كلا ، كلا ، بل تشارك خير مشاركة بالتربية والتهذيب ، وبالتعليم والإرشاد ، وتدبّر أجدى تدبير بالقيام على أخلاق النشء وأفكارهم ، وبدعوتهم إلى الحق والخير ، وتنشئهم على العدل والإحسان ، وإشراب قلوبهم المودة والمحبة ، وتعويدهم العدل والإنصاف .

إنها إذاً تشارك وتدبّر بقلبها الطاهر ، وفكرها المبرأ من العصبية ، وتهدى الأمة إلى الخير دون تحيز ، وترشدها إلى الحق دون تحزب ، فتكون داعية ألفة لا فرقة ، ومنبع سلام لا خصام .

وليس هذا بعيداً من المرأة ، إن تبلغ فيها دعوتنا إلى التكريم والتقديس ، ورضيتم لها سلطانها في الأسرة ، ومكانها من الأمة .

إننا نرضى شركتها في كل أمر ما عدا الخصام والجدال ، ونقبل تدبيرها في كل شأن حاشا معارك السياسة ومكايد الأحزاب .

إننا ننزه المرأة — ومكانها في القلوب مكانها — أن تباشر الخصام ، وتتخلل الزحام ، وتسير في مواكب الانتخاب ، وضوضاء المظاهرات ، وترى منافسها ويرميها ، ويبهتها وتبهته .

إنا والله نُشفق عليها أن تسير في المدن والقرى ، وتطرق الأبواب ليلاً ونهاراً ، وإعلاناً وإسراراً ، وتلقى الكريم واللئيم ، والحر والنذل ، والغليظ والرقيق ، مستجدية التأييد ، منفقة من الوعود !

ثم ضحك المجادل وقال مازحاً : « ولسنا نعرض لما وراء هذا من الأقاويل حين يقول السفهاء : هذه المرشحة جميلة ، وتلك دميمة ، وهذه بسّامة ، وتلك متجهمة ، وتلك غليظة في القول ، وهذه لينة ... وهلم جرا .

وإنا والله لنرثى لها حين نتمثلها وقد ابتُليت بالنيابة فجاءت الوفود تستنجز الوعود ، وطرق الناخبون دارها كل حين ، يرفعون الشكايات ، ويقتضون الحاجات ، ويخرجونها من أسرتها طوعاً أو كرهاً ، ويشغلونها عن عيالها ، شاءت أم أبت !

إنا وايم الحق لنشفق على الرجال ونرثى لهم حين نراهم في معركة الانتخاب وبعدها ، وحين نرى تحكم المتُبطلين فيهم ، وتدلل الطامعين عليهم ، حتى لنتمنى أحياناً أن يُعفى الرجال من الانتخاب ومطالبه ، والتمثيل ومتاعبه . وكم عرفنا وبلونا وأشفقنا ورثينا !

فاشتد صاحبه في الجدال ، واحتد في الحوار ، قائلا : « أيها الدعون المبطلون ، والمجادلون الجاهلون ، إنكم تعطلون نصف الأمة أو أكثر ، وتحرمونه الإبانة عن رأيه ، والإعراب عن حجته في المجالس النيابية . والتمثيل لا يصح حتى يمثل كثرة الأمة

ويبين من آرائها ، فكل أمة لا تشارك نساؤها في الانتخاب والنيابة ، لا يصح تمثيلها ، ولا يجوز في الحق تصرفها ... هذه حجة دامغة ، فكيف تحاولون لدفعها ؟ »

قال له صاحبه : قلت آنفاً إن على النساء تنشئة الأجيال وتربيتها ، فآراؤهن مبثة في نفوس الرجال والنساء ، ممثلة فيها ، وأقول الآن : إن مدار تمثيل الأمة على أن يكون لكل مذاهبها وآرائها من يتكلم بها ويجادل عنها في مجالس النيابة . التمثيل صحيح ما تحقق هذا الشرط ، فإن عمدت أمة إلى تقليل مشاغل الانتخاب بتقليل عدد الناخبين بأية وسيلة دون إجحاف بطائفة بعينها ، أو تمييز جماعة على أخرى . كان الناخبون ممثلين لآراء الأمة ، وصح التمثيل ، ولم يضر هذا التقليل .

هب أنك أخذت دفاتر الانتخاب في بلد فحذفت نصفها بالاقتراع ، ألا يكون النصف الباقي ممثلا أفكار هذا البلد ونزعاته ؟ أتقول إن مذهباً أو رأياً فقد أصحابه بهذا الاقتراع ، إن انتصر الرأى ستون من مائة ، أو ثلاثون من خمسين ، أو خمسة عشر من خمسة وعشرين ، لم تختلف النتيجة ، ولم تتغير النسبة .

وليس النساء طائفة ، أو طبقة في الأمة ، ولكنهن شريكات في كل أسرة وفي كل جماعة ، فإن أعفت أمة نساءها من مشاغل الانتخاب تمكيناً لهن مما هو أولى بهن ، وتنزيهاً عن معارك السياسة ومطاعن الانتخاب ، لم يخل هذا بتمثيل الأمة ، ولم ينقص من كرامة المرأة .

فضجر صاحبه بهذا الرأي وشرع يجادل فيه ، فصاح به : لقد ضاق الوقت ، لا تجادل ، سأدع كل حجة إلا حجة واحدة ، وأتجنب كل القضايا إلا قضية فذة ، فإن أجبتم عنها ، وخلصتم من سلطانها ، كان بيننا وبينكم ما شئتم من جدال .

إني أقول لمن يطلب الانتخاب للنساء ، أتطلب هذا عن رضا من النساء أو كره ، أتكرههن على الانتخاب ، أو تأخذ برأيهن فيه قبولا ورداً ؟

إن فيصل الأمر بيننا وبينكم أن تبدأوا فتعرفوا آراء النساء في قضيتهن هذه ، أيردن الانتخاب أم يأبينه ، أيحرصن عليه أم يزهدن فيه ؟ فاستفتوا النساء قبل أن تطلبوا لهن ، واسألوهن قبل أن تدّعوا عليهن .

فإن استفتيتم النساء فأعرض أكثرهن عن المشاركة في الانتخاب ، وأبين أن يكون لهن هذا النداء ، فليس لفضول أن يتكلم عنهن .

وإن قلتم إن عسيراً أن يعرف رأى النساء في أحوالهن الراهنة ، قلنا فكيف إذن تحاولون إشراكهن في الانتخاب ؟ إنهن إن عجزن عن الإعراب عن آرائهن في قضيتهن فهن في غيرها أعجز !

وإن قلتم إن أحوال النساء تحول الآن دون تعرف آرائهن ولكنها حال تزول ، وسيكون لهن من الثقافة ما يعربن به عن أفكارهن من بعد ؛ قلنا فانتظروا حتى تحول الأحوال ، ثم عودوا إلى الجدال .

إنها لحجة دامغة لا تستطيعون الفرار منها ، وبرهان مفحم لا تملكون الجدال فيه !

تعرّفوا رأى النساء في أمرهن ، ولا تفتروا عليهن ، ولهن القول الفصل ، وعلينا السمع والطاعة .

وأخذت الجادل سورة الحجة ، فوجم وفكر ، وانتهز الحاضرون الفرصة ، فأنهوا الجدال وانفض المجلس .

(الكلام صلة) عبد الوهاب عزام

صور من الحياة :

قبعة تتزوج

للأستاذ كامل محمود حبيب

— ٢ —

آه ، يا صاحبي ، لقد خرجت من لدن سعادة البك بعد أن سامك الاحتقار والمهانة ، وبعد أن سفه رأيك وازدرى عقلك ، وبعد أن قذف بك إلى خارج الدار ليحول بينك وبين أن تعبث بكرامة ابنته الشابة ، أو أن تلوث شرفها .

خرجت وفي قلبك أسى ولوعة ، وفي نفسك هم وضيق ... فلشدّ ما آذاك ما رأيت من إباء الفتاة المصرية ومن ترفعها ! ولشد ما أزعجك ما لمست من كبرياء الأب المصري ومن صلفه ! ولشد ما أفزعك ما أحسست من سلامة الأسرة المصرية ومن تماسكها ! وحز في نفسك أن يفلت الطائر الجميل من بين يديك بعد أن ظفرت به ، فيطير معه أمل عقدته على جمال الفتاة وعلى جاه الأب وعلى ثراء الأسرة .

وحاولت أن تداري خيبة أملك خلف ستار من الكذب والرياء ، فذهبت تحقد على الفتاة المصرية وتتهمها بألوان من النقائص ، وتقذفها بفنون من الافتراء ، لأنها استعصمت على خداعك الوضيع ، وتعنت على أساليبك الثعلبية ، وضنت بشرفها أن تعبث به يد ، وصانت كبرياءها عن أن تنحط إلى أسفل .

وقلت لي — ذات مرة — : « إن الفتاة المصرية إنسانة ضعيفة العقل ، خاوية الذهن ، واهية الخلق ، سقيمة الفكر ، تفزع لكل صوت ، وتفزع من كل نأمة ، وتضطرب لكل حادثة . يلذ لها — دائماً — أن تعيش على حيد الحياة ، بعيدة عن نور المدنية لأنه يعشي بصرها ، وفي منأى عن دوافع العيش لأنها تمسق أعصابها .

هذا هو تاريخها — تاريخ الذلة والإهمال — يتدفق في عروقها دماً قذراً تافهاً ، وهي لا تستطيع أن تنهض بعمل ولا تصبر على مسئولية . وإن تعلمت أضافت سخفاً إلى سخف فيها ، وضمت سفهاً إلى سفه ، وجمعت بلاهة إلى بلاهة ، فهي تتحدث بلسان العلم حديثاً فيه السخف والسفه والبلاهة جميعاً ، وهي ... »

فقلت لك مقاطعاً : « وهي فتاة فيها الشرف والكرامة والانزواء عن الشرور ، والنأي عن الدنايا ، والنزوع عن الفحش . وهي إن تعلمت كانت في الدار صاحبة ورفيقة ، وفي الجامعة نبراساً وضياء ، وإن تزوجت أصبحت أماً وزوجة ومعلمة » .

وقلت لي في ملل وضيق : « إن فيها الرجعية والجمود وانغلاق الذهن وفساد الرأي » .

فقلت لك : « وإن فيها بواعث الحياء والخجل والترفع والإباء ، ولكنك أنت — يا صاحبي — قد لبست القبعة حيناً ، فنفثت فيك من روحها ودمغتك بأسلوبها ، فهل كنت تؤمن بما تقول حين اندفعت إلى فلان بك في غير أناة ولا صبر تخطب إليه ابنته وهي فتاة مصرية ... »

فأرتج عليك ، واضطرب ذهنك ، وتبلبل عقلك ، وخانتك فلسفتك ، وأنت فيلسوف كبير .

لا عجب — يا صاحبي — إن كانت قد عصفت بك صاعقة عنيفة يوم أن طردك سعادة البك من داره فتزلزل كيانك وتصدع قلبك ، لأن رجلاً مصرياً دعّك من داره في غير هوادة ولا لين ، وامتهنك وأنت فيلسوف عظيم لبس القبعة حيناً من الدهر !

وآدك أن تصبر على ما أصابك من سعادة البك ومن ابنته ، فانطلقت تشوه الحقيقة وتمسخ الواقع لتثلب الأسرة المصرية وتحط من قدرها بحديث تافه فيه المغالطة والمكابرة .

وذهبت تلق أعباء نفسك في نُزل قاهري الموقع أجنبي الصبغة بين يدي سيدة عجوز ، ألمانية اللسان يهودية النزعة ، ومن حواليها بناتها الثلاث ، وإن الواحدة منهن لترف رفيف الزهرة الغضة حين تضوع عطرها الجذاب لتأسر به القلب وتسيطر على الفؤاد .

وسكنت إلى هذا النزل ، تعيش بين العجوز وبناتها تمثالاً صامتاً لا ينبض بالحياة ولا يخفق بالإنسانية ؛ فأنت تقضي يومك منطوياً على نفسك في حجرة لا تندفع إلى حديث ولا تنشط إلى سمر ، ولا تبسم لفاكهة ، ولا تنزع نفسك إلى رفيق . وضاقت العجوز بأسلوبك في الحياة ، فهي تطمع في أن تراك طلق الوجه واليدين واللسان تنغمر في حياة الأسرة تأخذ منها وتعطي ... ضاقت بك العجوز وهي ذات مكر وخداع ، وهي ذات حيلة ودهاء ، لا يعجزها أن تتوسل إلى غايتها بأساليب شيطانية ، ولا يصدها أن تبلغ الهدف بأفانين أرضية . وانصرفت أنت إلى خلوتك وشغلت بخواطرك ، ولكن العجوز اليهودية لم تنصرف عنك ، فراحت تسعى إليك ، وتنفث فيك سمومها ، وتنقض عليك — بين الحين والحين — تريد أن تنزعك من خلوتك ،

وأن تزعجك من وحدتك ، وأن تكشف عن سرك ، وإن لفتاتها لسحراً ، وإن لحديثها لطلاوة ، وبين يديها فتياتها الثلاث وإن فيهن الدلال والجمال وفيهن السحر والجاذبية . وأخذت العجوز اليهودية تلوح برقى السحر حواليك وتتقرب إليك ثم تنشر عليك شباك التمويه والمداهنة لا تهن عزيمتها ولا تفتر قوتها . واستطاعت — بعد لأي — أن تجذبك إلى المائدة الخضراء لتسرق مالك ؛ واستطاعت — بعد جهد — أن تسقيك الكأس الأولى لتسرق عقلك . وهكذا خطوت أول خطوة في سبيل الانهيار الخلقي والانهيار الاجتماعي ، ولكن عقلك الفاتن لم يتوضح الطريق فما شعرت بقدمك وهي تتزلق إلى الهاوية . لقد غطى على عينيك ستار من اللذات كنت تحسها وأنت تطوي لياليك بين فتيات النزل تصغي إلى حديثهن وتنتشي بخمرهن وتشاركهن اللعب والمزاح والعبث ، تتودد إليهن وهن يتملقنك فبدأت تهوي إلى أسفل وهن من ورائك يدفعنك إلى الهاوية والأم العجوز — من ورائهن — توسوس بأمر وتسعى إلى غاية . وراقتك الحياة الجديدة وفتنك زخرفها فاندفعت لا تجد رادعاً من دين ولا وازعاً من خلق على رغم أنك تخسر مالك وتقتل وقتك . لقد أسرك القمار والخمر وخلبك الجمال والإغراء فاعتدت ترى أنك أنت

الآن — يا صاحبي — رضيت بأن تصبح سجيناً في قفص من ذهب ، وأغلق باب القفص من دونك حين تزوجت من أصغر فتيات النزل ، وهي فتاة عابثة لعوب رقيقة الشباب غضة الإهاب ، ذات دل آسر وجمال خلاب ، وتراءى لك أن الفتاة قد مسحت بيدها الرقيقة البضة على أحزانك ، وآست بحديثها الجذاب جراحك العميقة ، وبدا لك أنك أمسيت روح هذه الدار وريحانها ، وأنك أصبحت فتاها المرموق وسيدها المدلل فاطمأنت نفسك وهدأت نوازعك . ثم أردت أن تحول بين النزل وبين زواره من كل جنس — وهم كثر — فما استطعت إلى ذلك سبيلاً . وأوحت إليك زوجك الأجنبية بأن تتخذا داراً غير هذه تكون عش الغرام ومنزل السعادة ومهبط الأماني ، فانطلقتما معاً تهيئان داراً صغيرة فيها البساطة والأناقة وفيها النظام والترتيب وفيها الهدوء والاستقرار . ثم دفعتك الفتاة إلى السينما وإلى المسرح وإلى النديّ ، ورافقتك إلى الملهى وصحبتك إلى المرقص ، وأنست بصحابك تأخذ منهم وتعطي ، وأقبلت أنت على رفاقها في بشر وإيناس

وهكذا — يا صاحبي — وجدت في زوجك الأجنبية ما افتقدته في زوجك المصرية ، وحدثتك نفسك قائلة : « لا ضير فهذه الفتاة تستطيع أن تمهد لك السبيل الوعر وتفتح أمامك الباب الموصد ، ثم تدفعك إلى الهدف في سهولة ويسر ، وأنت من ورائها تندفع حتى تبلغ » أما هي فكانت تجلس إلى أمها العجوز بين الحين والحين وتستمع إلى حديثها بين الفينة والفينة ، وإن العجوز لتعرض إليها بأمر وتغريها برأي وهي من ورائها تندفع . ووجدت الفتاة في رفاقك لذة صرفتها عنها ، ولست فيهم متعة شغلتها عن الدار

وعشت حيناً مع زوجك الأجنبية . وهي ألمانية اللسان يهودية النزعة شيطانية المشرب لا تجد غضاضة في ما تفعل ولا تحس أذى في ما تذر . ولكن دمك الشرقي ما تلبث أن ثار وهدر؛ وإن للشرقي لكرامة يعز عليه أن تنهار ، وإن له لشرفاً يضن به من أن يمتهن ، وإنه ليبذل روحه ودمه دون أن يخدش . فأنت حين تغاضيت عن مثالب زوجك كنت قد نزلت عن شرقيتك وانصرفت عن مصريتك لتعيش زماناً في جو القحة وترتدغ في ميادنها ، ولكن دمك الشرقي ما تلبث أن ثار وهدر فعزمت على شيء . وأنى لك ما تريد وإن زوجك — ومن ورائها أمها — لذات حيلة ودهاء ، فهي تترضاك حيناً وتتوسل برؤسائك حيناً ، حتى إذا ضاقت بجهلك وعجزت عن ترويضك راحت تهددك بأن تفصلك عن عملك إن وسوست لك نفسك أن تنالها بأذى ، وإنها لقادرة على أن تفعل .

وجاءك — ذات يوم — رجل من بني جلدتها ذو جاه ومكانة يحذرك غب طيشك بقوله : « حذار أن تمسك حماقتك فتطلق زوجك ، وإذن لا تلبث إلا قليلا حتى تطلقك الوظيفة ثم لا تجد بعدها ملجأ ولا ملاذاً إلا الشارع » وصمت لسانك حين شعرت بأن غلاً ثقيلا يشد على عنقك فلا تستطيع أن تفلت منه ، وحين خشيت أن تصبح صعلوكاً تتقاذفك معضلات الحياة وتصفعك متاهات الحاجة ، فألقيت السلم وكبتّ في نفسك نوازع ونوازع لتكون في الدار حملاً وديعاً تتلقى الأمر من زوجك الأجنبية الفاجرة فلا تجد مصرفاً عن الطاعة ، ولتكون خارج الدار ثوراً هائجاً تفرغ همّ نفسك في موظف صغير لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، وتنفس عن قرارتك المكفوفة في خادم عاجز لا يملك أن يتقي شرك

ليتك ، يا صاحبي ، تعلمت من فلسفتك أن صلات الأسرة تزداد قوة ومتانة حين توثقها روابط الوطن والدين واللغة ، فهي تلم شعثها وتجمع ما تبعثر منها وتبذر فيها غراس الألفة والحنان وتنفث روح العطف والمحبة ! ليتك ، يا صاحبي ، ليتك ... !

كامل محمود حبيب

مثل من فهم الشعر القديم

في بحث أدبي جامعي

للأستـــــاذ أبو حيان

قرأت هذه الأبيات التي أوردها بعد قليل ، في كتاب من هذه الكتب الجامعية التي يتعرف بها الناس ، عادة ، ألوان النشاط العلمي في الجامعة . وقد زعموا أن هذا الكتاب من خير ما يمثل الجامعة في سنواتها الأخيرة ، إذ لم يجل على الناس إلا بعد أن أقرته الجامعة وأجازت صاحبه ، ورأته جديراً بأن يحمل أرفع ألقابها ، وهو كتاب « الهجاء والهجاءون » ، تأليف الدكتور م . محمد حسين ، مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول » كما يتألق به صدره .

أما هذه الأبيات فهي أبيات الخطيل بن أوس ، أخي الحطيئة وقد قالها في حركة الردة وها هي ذي ، كما أوردها صاحب ذلك الكتاب ، نقلا عن الطبري ، وكما ضبطها هذا الضبط الذي رآه :

فدى لبني ذبيان رحلي وناقتي عشية يحدى بالرماح أبو بكر
ولكن يُدَهْدَى بالرماح فهبنه إلى قدر ما إن تقيم ولا تسرى
ولله أجنـــــاد تذاق مهانة لتحسب فيما عد من عجب الدهر

ثم يعلق على البيت الثاني ، شارحاً له ، بقوله :

« دهـــديت الحجر تدهدى دحرجته . هبنه كذلك هي بالنص (يريد : بالمصدر المنقول عنه) ، لعلها من أهاب بالإبل والخيل إذا زجرها قائلا هاب هاب ، فيكون المقصود أن هؤلاء الرجال يزجرون أبا بكر وجيوشه ، ويدفعونهم إلى قدرهم وحينهم »

أما البيت الأول فلا إشكال فيه عنـده ، فلا حاجة به إلى التعليق عليه بشرح أو تفسير أو تحرير ، وإن كنت أنا لم أفهم — ومعذرة لامرئ بعيد من منهج المدرسة الحديثة — كيف يحدى أبو بكر بالرماح ، فالحادي يحـدو الإبل بغنائه ، فتنساق خلفه وتطرد وراء حدائه ، فكيف يمكن أن تكون الصورة حين يضع الرماح في موضع الحداء !

يستطيع كل امرئ — ولو لم يكن من الأساتذة الكبار — أن يتكلف ويتمحل في الفهم والتخريج ، ويلتمس المذاهب المختلفة في ذلك ، وإن لم يمكن أن تستقيم مع ذوق أدبي سليم ، أو منهج علمي سديد ، ولكن هذه التمحلات لا غناء فيها ، ولا جدوى لها ، في أداء الصورة الشعرية الجديرة بذلك الشاعر . والأمر بعد أيسر من هذا العناء ، فالدال في يحدى إنما هي ذال معجمة ذهب إعجامها ، فتكون العبارة : « عشية يحذى بالرماح أبو بكر » يعني يطعن ويمزق جسده ، كما هو الأصل في معنى حذا وأخواتها ، كحذ وحذق وحذف وحذم .

هذا هو البيت الأول ، ولا بأس على الأستاذ أن يتجاوزه ، كما تجاوز — فيما يبدو — كثيراً غيره ، إذ ليس بصدد التحقيق والتدقيق والتنقيب والتعقيب ، وإذا كان أمر الدرس الأدبي قد صار — فيما يبدو أيضاً — أمر دراسة خاطفة عابرة ، يعنيها أول ما يعنيها أن تخطف الأبصار — فيما يخيل إليها — ببعض الظواهر البراقة الباهرة ، وأن تصل إلى أهدافها المرموقة ... بما تستطيع أن تصطنعه من حركات بارعة ماهرة .

ولكنا لا نغمط الأستاذ حقه ، فبقدر ما تجاوز البيت الأول مسرعاً عجلا ، وقف عند البيت الثاني متأنيا محققا متأملا ، كما رأينا في التعليق الذي نقلناه عنه منذ قليل . ففسر كلمة « يدهدى » كما لقنته المعاجم ، وجزاه الله من الباحثين خيراً ! ولكن هذه المعاجم التي أسعفته في موقفه من هذا البيت ، في هذه الكلمة ، فقدمت إليه تفسيرها ، فأسرع إليه يدونه كما هو ، أمينا عليه ، فرحاً به ، جعلت تراوغه وتشابه وتمكر به في الكلمة التالية ، فخيلت إليه أنها تستطيع أن تمده فيها بما يثبت أستاذيته ، ويظاهر ألمعيته ، ويحقق دكتوريته ، فتشبث بها ، وتعلق بذراعيها :

« ولكن يدهدى بالرجال فهبنه » ، فهبنه ؟ ما عسى أن يكون معنى هذه الكلمة ؟ أجيبي أيتها المعاجم العزيزة كما أجبتني من قبل . ولكن المعاجم لم تجبه في الأولى إلا لتزلفه وتميت به وتسخر منه في الثانية . فها هي ذي تأخذ بيده المتشبثة بها ، وتجره معها ، وتجول به بين هذا الموضع وذاك من مواضع الهاء والباء ، ثم تقف به أخيراً — وقد بلغ منه الكلال والعناء حتى كاد يتساقط من الوهن والأعياء — عند كلمة « أهاب » ، وتقول له ، وهي تبتسم بسمة ساخرة ماكرة : انظر ها هنا ضالتك !

أجل ! ها هنا أخيراً ضالته ، وما يكاد يصدق أنه واجدها ، ولكنه يسارع فيصطنع هيئة العلماء المتزمتين ، ويتخذ سمت الأساتذة المحققين ، ثم يتناول قلمه ، فيكتب : « لعلها من أهاب بالإبل والخيل إذا زجرها قائلا هاب هاب » ، ثم يتنفس الصعداء بعد هذه الرحلة المضنية الموفقة ! مستريحا إلى هـــذه الجملة البارعة الرائعة !

ويا لله لهذه الشرارة التي سطعت له من بين صفحات المعاجم، فأضاءت له أرجاء ذلك البيت وجعلته يتبين فيه سبيله على ذلك الوجه ! . وكذلك أحس الاستاذ من أعماق قلبه بالولاء البالغ لهذه المعاجم ، فهو مخلص لها ، منصرف إليها ، مغمض عينيه بين يديها ، متفان في الخضوع لما تشير به ، وإن لم يتبين وجهه ، غير عابئ بما يمكن أن يعارضها فيما يلقفه منها . وكذلك ضرب صفحا عن قوانين النحو والصرف ، وأعرض ، ونأى بجانبه عما تحتمه هذه القوانين ، إذا كان فيها ما يعترض سبيل الفهم الذي فهمه عن المعاجم ، أيا كان هذا الفهم ، أو يخالف ما حسب أن المعاجم تدلى إليه به .

وإذن فلا عليه أن تكون هذه الكلمة « هبنه » معدولة عما ينبغي أن تكون عليه ، باعتبارها من « أهاب » ، ولا عليه أن تكون بدلا من « أهابوا به » مؤدية ما تؤديه هـــذه ، وأنف القوانين اللغوية الأولية المجمع عليها راغم ، ما دام لا بد من هذا فيما تأدى إليه . ومنذ الذي أجاز للغة أن تستعصى عليه ، أو تنفر من بين يديه ؟! وأي شيء هذه القوانين التي تجعل اللغة شيئاً جامداً متماسكا لا يساير الأفهام ، ولا يطوع لأساتذته ، أو لما تريده منه ، وما لا تستطيع أن تفهمه إلا به .

وهكذا يكون معنى البيت ، بعد هذا كله : « أن هؤلاء الرجال يزجرون أبا بكر وجيوشه ، ويدفعونهم إلى قدرهم وحينهم » ، ويا له من معنى !

من هم « هؤلاء الرجال » ؟ أهم رجال أبي بكر « يزجرون أبا بكر وجيوشه » أي يزجرون أنفسهم ؟ أم هم بنوذبيان الثائرون على أبي بكر ، والذين يغضبهم الشاعر برحله وناقته ، ثم يجعلهم يتدحرجون كما تتدحرج الحجارة ؟ أم ماذا ؟ ما أحوج هـــذا الشرح ، بعـــد كل ما سبق ، إلى ما يشرحه ، ويزيل ما يبدو سافرا من تهافته .

لا لا ! ما هكذا ينبغي أن يتناول الشعر . وماذا يبقى لـ « بطن الشاعر » إن كان لا بد للشعر أن يكون ظاهراً واضحاً مكشوف المعنى مستقيم الوضع ؟ وأين إذن فضل الغموض وأثره الوجداني والهزة التي يبعثها في حنايا النفس ؟ ولكنها الدرجة القديمة ، قاتلها الله ! لا تزال تلجأ إلى قواعد النحو والصرف ، ثم إلى قوانين المنطق والعرف ، دون أن تمس بالمذهب الجديد في الشعر وأساليب قراءته وإدراكه .

وبعد ، فما أدرى ما القديم والجديد في فهم الشعر وتذوقه ونقده ، ولكني أرى الأمر في هذا البيت أيسر من هذا التخبط والتسكع وتحدى قواعد النحو والصرف والعقل والمنطق والفن أيضاً . فليس هناك أكثر من أن نتعلم كيف نقرأ قراءة صحيحة دقيقة ، ولا نكون كهؤلاء الصحفيين والمصحفين الذين يتندرون بأخبارهم ، والذين يحكون عن أحدهم أنه نظر في المصحف قوله تعالى : « إذ يبايعونك تحت الشجرة » ، فقرأه : اذئباً يبولك تحت الشجرة . وأمضى ليلة يكد نفسه في التماس التخريجات المختلفة من هنا وهنا تحقيقاً لأستاذيته !

فالأمر في هذا البيت شبيه بالأمر في البيت الأول . تصحيف يسير قريب ، ولكنه أدى إلى ذلك الخلط العجيب . فليست كلمة « فهبنه » المؤلفة من فاء عطف لا يدرى ماذا تعطفه وماذا تعطف عليه ، وفعل لا يعرف من أي أصل هو ، ونون نسوة لا موضع لها ، وضمير غيبة لا مرجع له . ليست هـــذه الكلمة أو الجملة إلا تصحيفاً قريباً لكلمة واحدة ، هي كلمة « مهينة » من الهوان وبذلك يكون البيت :

ولكن بعدى بالرجال مهينة ... إلى قدر، ما إن تقيم ولاتسرى

وبعدى بصيغة المبني للفاعل لا المبني للمفعول ، والفاعل هو أبو بكر ، وبذلك يستقيم البيت ويطرد المعنى ، دون تحد للنحو أو معاندة للصرف أو معارضة للمنطق .

وأما بعد فهذا مثل من فهم الشعر القديم في كتاب « الهجاء والهجاءون » ، ولم أقرأ الكتاب جملة بعد ، ولكني أحسست عند هذا الوضع الذي عرضته بالحسرة تلذع قلبي وتفزعني أشد الفزع ، أن يكون مثل هذا من صور الدرس الجامعي في هـــذه السنوات الأخيرة . والمشتكى إلى الله .

« أبو عبادة »

من رجال البلاغة في عصر الحروب الصليبية :

ابن الأثـــير

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

إخوة ثلاثة ، بلغوا حظاً كبيراً من المجد العلمي ، والمنزلة الرفيعة في الحياة ، وخلود الذكر بعد الموت . أما أكبرهم فمجد الدين المبارك (٥٤٤ — ٦٠٦ هـ) الذي كرس حياته لدراسة القرآن والحديث والنحو ، وله فيها مؤلفات ، لا يزال بعضها باقياً إلى اليوم . وأوسطهم عز الدين علي (٥٥٥ — ٦٣٠هـ) المبرز في التاريخ ، والمصنف فيه عدة مصنفات ، أهمها الكامل الذي يعد مرجعاً من أشهر المراجع . وأصغرهم ضياء الدين نصر الله ، الأديب الوزير ، وهو الذي نريد الحديث عنه . ومع اختلاف مناحيهم في الثقافة شغفوا جميعاً بالأدب وألفوا فيه . وتحتفظ دار الكتب برسائل المبارك الأدبية ، وبكتاب الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور لعز الدين . أما أصغرهم فكان أوفاهم حظاً من الأدب وبلوغ أسمى المناصب ، وإن قصرت به سياسته عن أن يحتفظ بما ناله من سلطان وجاه .

ولد نصر الله في يوم الخميس العشرين من شعبان سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣) بجزيرة ابن عمر ، وهي بلدة على دجلة في شمال الموصل وبالقرب منها . وإذا كان التاريخ لم يتحدث عن والده محمد بن محمد بن عبد الكريم فأغلب الظن أنه كان ميسور الحال يسراً هيأ لأولاده أن يغترفوا من الثقافة وأن يتفرغوا لها .

وانتقل نصر الدين مع والده إلى الموصل حيث تثقف بها ، فحفظ كتاب الله وكثيراً من الأحاديث النبوية ، وأخذ بحظ صالح من النحو واللغة ، أما علم البيان فقد خصص له أكثر وقته ، ووقف عليه معظم جهوده ، قرأ فيه الكتب النظرية ، وأقبل على دواوين الشعراء يحفظ منها ما يشاء ، فدرس ما ألف في البلاغة ، وعرف ما انتهى إليه العلماء فيها ؛ ومن أهم ما قرأه منها :

كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ، والتذكرة لابن حمدون البغدادي ، وكتاب أبي العلاء محمد بن غانم ، والأقصى القريب للتنوخي ، وكان معجباً بكتاب الموازنة بين الطائيين للآمدي ، وكتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، « غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولا ، وأجدى محصولا » ، كما قال في المثل السائر .

أما علمه بالشعر ، وحفظه له ، فقد قال عنه في كتابه : «ولما نصبت نفسي للخوض في علم البيان ، ورمت أن أكون معدوداً من علمائه ، علمت أن هذه الدرجة لا تنال إلا بنقل ما في الكتب إلى الصدور ، والاكتفاء بالمحفوظ عن المسطور ...

ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وأنفدت شطراً من العمر في المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحراً لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهي إلى إحصاء قول لم تحص أسماء قائله ، فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده ، وتتشعب مقاصده ، ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم ، في اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذ المراد من الشعر إنما هو إيداع المعنى الشريف في اللفظ الجزل واللطيف ، فمتى وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل ، وقد اكتفيت في هذا بشعر أبي تمام حبيب بن أوس ، وأبي عبادة الوليد ، وأبي الطيب المتنبي ، وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعزاه ومناته ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته . وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء » .

وأخذ ابن الأثير كذلك بحظ من الحساب ، والجبر ، والمقابلة ، والهندسة . ولست أدري إن كان قد عرف لغة غير العربية ، مما هيأ له أن يحكم على الالتفات بأنه خاص باللغة العربية دون غيرها من اللغات[1] ؛ وأرجح أنه كان يعرف الفارسية والتركية ، كما يدل على ذلك حديثه عنهما في كتابه[2] ؛ وكان ابن الأثير متعصباً للغة العربية ، مؤمناً بأنها سيدة اللغات ، لما أوتيت من خصائص في تركيب كلماتها ، وما منحته من سعة ودقة جمال .

أما موقفه من الفلسفة فموقف المبغض المزدري ، يرى في دارسيها من أمثال ابن سينا والفارابي رجلا مغرورين أضلهم أرسطو وأفلاطون .

ولما استكمل ابن الأثير ثقافته ، مضى يريد الاتصال بصلاح الدين ، فأوصله القاضي الفاضل إليه في جمادى الآخرة سنة ٥٨٧

(١) المثل السائر . (٢) ص ١٦٤ ص ٢٥١

وقرر له صلاح الدين مرتباً ، ولكنه لم يلبث في صحبة صلاح الدين بضعة أشهر ، حتى طلبه الملك الأفضل نور الدين من والده ، فخيره صلاح الدين بين الإقامة في خدمته ، والانتقال إلى ولده ، فاختار ولده ، ومضى إليه في شوال من تلك السنة . ولعل الباعث له على هذا الاختيار رغبته في أن يكون بمكان يستطيع أن يظفر فيه بسامي المناصب وذوي النفوذ ، ولن يكون ذلك مع صلاح الدين ووزيره القاضي الفاضل . وحقق ابن الأثير أمنيته عند الملك الأفضل ، فقد استوزره ، ونعم بما كان يبغيه من السلطان . فلما مات صلاح الدين ، وصارت دمشق إلى الأفضل انفرد ضياء الدين بتدبير شئون الملك ، وتصريف أمور الرعية ، وأصبح مرجع الحل والعقد . ويجمع المؤرخون على فساد سياسته الخارجية والداخلية فقد توترت العلاقات بين الأفضل وملوك أسرته ، بسوء تدبير وزيره ، ونفرت الرعية من حكمه ، وكان له بلا ريب أكبر الأثر في المصير المحزن الذي انتهى إليه مليكه بعزله عن الملك . وكثيراً ما أشار العادل على ابن أخيه أن يقيله فلم يكن يفعل ؛ وهجاه الشهاب فتيان الشاغوري فقال :

متى أرى وزيركم وماله من وزر
يقلبه الله فـقـد أو ان قلع الجزر (ى)

وبلغ من سخط الشعب أن الناس هموا بقتله عند ما نزل الأفضل عن عرش دمشق ، فأخرجه الحاجب مستخفياً في صندوق مقفل عليه ، ولكن ذلك كله لم ينزع ثقة مليكه فيه ، فصحبه أنى ذهب وحضر إلى مصر في صحبته ، عند ما جاء الأفضل وصياً على العرش لابن أخيه العزيز . وظل ابن الأثير في خدمة الأفضل حتى أواخر سنة ٦٠٧ بعد نحو عشرين عاماً قضاها في صحبته ، ثم تنقل بين حلب عند الظاهر غازي ، والموصل ، وإربل ، وسنجار ، ولكن لم يطب له المقام في واحد منها ، فعاد إلى الموصل ، واتخذها دار إقامة ، وكتب الإنشاء لصاحبها : ناصر الدين محمود بن عز الدين مسعود ، وكان ذلك سنة ٦١٨ ، وبقي بالموصل زهاء عشرين عاماً أخرى . وفي رحلة له إلى بغداد ، يحمل رسالة من صاحب الموصل توفى بها في إحدى الجماديين سنة ٦٣٧ (١٢٣٩ م) ، ودفن هناك .

كان أظهر صفات ابن الأثير إعجابه بنفسه ، وإدلاله بمواهبه ، تلمس ذلك في كل خطوة تخطوها في كتبه ، فتراه حيناً يعرض عليك نماذج من رسائله ، معجباً بها ، منوهاً بقدرها ، مبيناً ما استطاع أن يصل إليه فيها من معان جديدة ، وأفكار مبتكرة ، وحيناً يوازن بين كلامه وكلام غيره ، ليقنعك بجودة ما خطته راحته ؛ وفي نظريات البلاغة كثيراً ما تراه يقدم إليك آراء يعدها من مبتكراته ، أو يأخذ بيدك لتلمس ما زاده هو على آراء من سبقه .

وإنا نقر لابن الأثير أنه كان من مجتهدي هذا الفن ، وأن أكثر كتابه كان ناشئاً عن تجارب لصاحبه ، وعن تقليبه النظر في ألوان الكلام ليستخلص منه وجوه حسنه ، وإن كنا نعرف أنه يغالي أحياناً في ادعاء الاختراع لمعاني رسائله ؛ قال ابن خلكان « ومن رسائل ضياء الدين ما كتبه عن مخدومه إلى الديوان العزيز من جملة رسالة وهي : ودولته هي الضاحكة وإن كان نسبها إلى العباس ، فهي خير دولة أخرجت للزمن كما أن رعاياها خير أمة أخرجت للناس ، ولم يجعل شعارها من لون الشباب إلا تفاؤلا بأنها لا تهرم ، وأنها لا تزال محبوبة من أبكار السعادة بالحب الذي لا يبلى ، والوصل الذي لا يصرم . وهذا معنى اخترعه الخادم للدولة وشعارها وهو مما لا تخطه الأقلام في صحفها ، ولا أجالته الخواطر في أفكارها .

أقول : لعمري ، ما أنصف ضياء الدين في دعواه الاختراع لهذا المعنى ، وقد سبقه إليه ابن التعاويذي في قصيدته السينية التي مدح بها الإمام الناصر لدين الله أبا العباس أحمد ، أول يوم جلس في دست الخلافة ومنها :

ورأى الغانيات شيبي فأعرضن ، وقلن : السواد خير لباس
كيف لا يفضل السواد ، وقد أضحى شعاراً على بني العباس

ولا شك أن ضياء الدين زاد على هذا المعنى ، لكن ابن التعاويذي هو الذي فتح الباب ، وأوضح السبيل ، فسهل على ضياء الدين سلوكه .

وتنوعت أغراض الرسائل التي كتبها ضياء الدين بين سلطانية وأخوية ، وهي رسائل دسمة ، فيها كثير من معاني ما حفظه من قرآن وحديث وشعر ، وكثير من الأمثال والإشارات التاريخية ، فقد كان ابن الأثير مثقفاً ثقافة أدبية قوية ، والتزم في

رسائله السجع ؛ لأنه كان يراه أعلى درجات الكلام ، ولا يرى وجهاً لمن يذمه سوى عجزه عن أن يأتى به ؛ وإلا فلو كان مذموماً ما ورد فى القرآن الكريم ، ويعلل وجهة نظره فى استحسان السجع بأنه اعتدال فى مقاطع الكلام ، والاعتدال مطلوب فى جميع الأشياء ، والنفس تميل إليه بالطبع .

وجمعت رسائله فى ديوان بلغ عدة مجلدات ، يبلغ المختار منها مجلداً واحداً ، ولكنى لم أعثر على هذا الديوان ، بل رأيت نماذج له كثيرة فى كتابيه المثل السائر ، والوشى المرقوم .

وبلغت ثقته بنفسه فى إنشاء الرسائل ، والعلم بقوانين البلاغة حداً كبيراً ؛ فكان يعارض شيخ الإنشاء فى عصره : القاضى الفاضل ؛ يكتب فى أغراض كتبه ، وحيناً يعرض له من المعانى ما يراه قد نقص عبد الرحيم ؛ فمن ذلك أنه قد عرض عليه كتاب له ، أرسله إلى بغداد على لسان صلاح الدين سنة ٥٧١ ، وضمنه ما أبلاه فى خدمة الدولة : من فتح مصر ، ومحو الدولة العلوية ، وإقامة الدعوة العباسية ، وشرح فيها ما قاساه فى الفتح من الأهوال ، فلما تأمله ضياء الدين ، وجده كتاباً حسناً ، قد وفى فيه الموضوع حقه ، إلا أنه أخل بشىء واحد ، وهو أن مصر لم تفتح إلا بعد أن قصدت من الشام ثلاث مرات ، وكان الفتح فى المرة الثالثة ، وهذا له نظير فى فتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة فإنه قصدها عام الحديبية ، ثم سار إليها فى عمرة القضاء ، ثم سار إليها عام الفتح ففتحها ، فلما عارض ضياء الدين رسالة القاضى الفاضل ، أشار فيما أشار إلى الشبه بين فتح مصر وفتح مكة ، وقال بعد أن أورد هذه الرسالة التى أنشأها : وعجبت من عبد الرحيم بن على البيسانى مع تقدمه فى فن الكتابة ، كيف فاته أن يأتى به فى الكتاب الذى كتبه . وانتقد القاضى الفاضل مرة أخرى وإن لم يصرح باسمه عندما رآه يشبه حصناً من حصون الجبال بأنه أنملة ، قال : فأى مقدار للأنملة بالنسبة إلى تشبيه حصن على رأس جبل ؟ !

وكان يوازن بين رسائله ورسائل الصابىء الكاتب ليرى مقدار تفوقه عليه ؛ وهو يرى فيه أن عقله زائد على فصاحته وبلاغته ، ذلك أنه يورد فى كلامه وصايا وشروطاً ، واستدراكات وأوامر ، ما بين أصل وفرع ، وكل وجزء ، وقليل وكثير ؛ إلا أنه عبر عنها بعبارة فى بعضها ما فيه من الضعف .

أما موقفه من علماء البلاغة فموقف الناقد الحاسب لا القابل المسلم ، يورد أفكارهم ، فيقبل منها ، ويرفض ، مناقشاً ، مدعماً رأيه بالحجة ، وإن جانبه الصواب أحياناً . وما كان يرى أن يدخل علماء النحو فى الأمور البلاغية حتى لا يصدروا أحكاماً لم تؤهلهم لها دراساتهم ؛ وهو لذلك ينتقد أبا الفتح بن جنى عند ما شرح قول أبى الطيب :

كل جريح ترجى سلامته إلا جريحاً دهته عيناها
تبل خدى كلما ابتسمت من مطر برقه ثناياها

فظن ابن جنى أن أبا الطيب أراد أنها كانت تبتسم فيخرج الريق من فمها ، ويقع على وجهه فشبهه بالمطر ؛ قال ابن الأثير : وما كنت أظن أن أحداً من الناس يذهب وهمه وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره ، وإذا كان هذا قول إمام من أئمة العربية تشد إليه الرحال ، فما يقال فى غيره ؟!

وأما رأيه فى الشعراء فإنه يرى الفرزدق وجريرا والأخطل أشعر العرب أولا وآخرا . « ومن وقف على الأشعار ، ووقف على دواوين هؤلاء الثلاثة علم ما أشرت إليه ، ولا ينبغى أن يوقف مع شعر امرىء القيس وزهير والنابغة والأعشى فإن كلا من أولئك أجاد فى معنى اختص به حتى قيل فى وصفهم : امرؤ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا شرب . وأما الفرزدق وجرير والأخطل فإنهم أجادوا فى كل ما أتوا به من المعانى المختلفة . وأشعر منهم عندى الثلاثة المتأخرون وهم أبو تمام ، وأبو عبادة البحترى ، وأبو الطيب المتنبى ؛ فإن هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان فى طبقة الشعراء ، أما أبو تمام وأبو الطيب فربا المعانى ، وأما أبو عبادة فرب الألفاظ فى ديباجتها وسبكها » . وهو فى هذا الفصل من كتابه يورد آراء بعض الناقدين فى الشعراء ويناقشها كعادته .

ومع تعصب ابن الأثير للعربية ، يقر بفضل العجم فيما أوتوه من القدرة على الإطالة المفرطة فى الشعر ، « فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم كما فعل الفردوسى فى نظم الكتاب المعروف بشاه نامه ، وهو ستون ألف بيت من الشعر ، يشتمل على تاريخ الفرس ، وهو

قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه ، وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها ، وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر » .

وألف ابن الأثير كتباً بعضها لم أعثر عليه .

١ — كتابه فى السرقات الشعرية الذى حدثنا عنه فى المثل السائر .

٢ — كتاب كنز البلاغة الذى أشار إليه السبكى فى شرحه على التلخيص .

٣ — كتاب مختارات اختار فيه من شعر أبى تمام والبحترى وديك الجن والمتنبى ، قال عنه ابن خلكان : « وهو فى مجلد كبير ، وحفظه مفيد » ، وقال أبو البركات بن المستوفى فى تاريخ إربل : نقلت من خطه فى آخر هذا الكتاب المختار ما مثاله :

تمتع به علقاً نفيســـاً فإنه اختيار بصــــير بالأمور حكيم
أطاعته أنواع البلاغة فاهتدى إلى الشعر من نهج إليه قويم

٤ — كتاب المعانى المخترعة فى صناعة الإنشاء .

٥ — الكتاب المرصع فى الأدبيات ، وقد طبع فى القسطنطينية سنة ١٣٠٤ .

٦ — أما أهم كتاب له فهو المثل السائر الذى حاول أن يضبط فيه قواعد البلاغة ، ونهج فى تأليفه نهجاً أدبياً عملياً ، لا نظرياً جافاً ، وملأه بالأمثلة وبيان مواضع الجمال ، ونقد مواطن القبح ، وعقد الموازنات ، وهو يعد من أسس كتب البلاغة ، وكان لهذا الكتاب وقع كبير فى الدوائر البلاغية فعندما وصل هذا الكتاب إلى بغداد انتقده الدائنى بكتاب سماه الفلك الدائر على المثل السائر ، وانتصر أبو القاسم السنجارى المتوفى سنة ٦٥٠ للمثل السائر ، فألف كتاباً سماه نشر المثل السائر وطى الفلك الدائر ؛ وتستطيع أن ترجع إلى كشف الظنون لترى ما أثاره هذا الكتاب من دراسات .

٧ — وكتابه الوشى المرقوم فى حل المنظوم منهج تطبيق لفكرته التى يدعو إليها ؛ ذلك أنه يرى الكاتب محتاجاً لحفظ القرآن الكريم والأخبار النبوية والأشعار الكثيرة بقدر المستطاع . وفى هذا الكتاب يبين بطريقة عملية كيف نستفيدها تقرأ وتحفظ فى ترقية أسلوبنا والثروة فى معانينا ، ولو أن الفتات التى نبه عليها ابن الأثير ، فى المعانى والعناية بها ، وكيف نستنبطها ، ونبتكرها سارت فى طريقها ، ولم تعقها الدراسات النظرية المحضة لكان لبلاغتنا اليوم شأن جد رفيع .

وله بدار الكتب :

٨ — كتاب مؤنس الوحدة ، جمع فيه أشعاراً وأخباراً فى المدائح والأوصاف والتشبيهات .

٩ — كتاب المفتاح المنشا لحديقة الإنشا ، بدأه مبيناً فضل صناعة الإنشاء ، وأنها أشرف صناعات الملك ، « فهى اليد اليمنى التى بها الأخذ والعطاء ، والمنع والإمضاء ، والقبض والبسط » ، فلا جرم كان من الواجب أن يختار لهذه الصناعة رجل تتوافر فيه صفات خاصة بين عقلية وخلقية وثقافية . ورتب الكتاب على بابين : أولها فى مراتب الكتب والمخاطبات ، والثانى فى الأدعية والانتهاءات ، فذكر ما تبدأ به الرسائل ، والألقاب التى يخاطب بها المرسل إليهم ، والدعاء لهم . وذكر فصلا فى الأدعية لأرباب غير الملة الإسلامية ؛ وأورد الصيغ التى يقدمها الكاتب بين يدى مراده . كما شرح فيه كثيراً من ألوان المحسنات البديعية .

ولابن الأثير شعر قليل ، لا يضارع قوة نثره ، ولعل من أجوده قوله :

وسائلكم عندكم كيف حالتى وذلك أمر بين ليس يشكل
نعم قلبه ، لا تسألوا فهو عندكم وأما عن الجسم المخلف فاسألوا .

أحمد أحمد بدوى
مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

المراجع :
(١) وفيات الأعيان ﺟ ٢ ص ١٥٨ و ٤٠٨ .
(٢) بغية الوعاة ص ٤٠٤ (٣) شذرات الذهب ﺟ ٥ ص ١٨٧
(٤) كتبه . (٥) صبح الأعشى ﺟ ٢ ص ٤٤٦ .
(٦) الروضتين ﺟ ١ ص ١٩٢ و ﺟ ٢ ص ٢٢٨ .
(٧) السلوك ﺟ ١ ص ١١٥ و ١١٦ و ١١٨ و ١٢٣ و ١٢٩ و ١٣٠ و ١٥١ . (٨) نثر الجمان — القطعة الثانية ص ١١٦
(٩) النجوم الزاهرة ﺟ ٦ ص ١٢٠ و ١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٥ و ١٦٢ و ٢١٨ (١٠) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول — الجزء الثانى ص ٨٢ (١١) معجم البلدان ﺟ ٣ ص ١٠٢
(١٢) شرح السبكى على التلخيص ص ٨٢ ﺟ ١ شروح التلخيص
(١٣) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ﺟ ٢ ص ١٨٩
(١٤) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص ٧٣ و ٣٤٤ و ٣٤٥
(١٥) كشف الظنون ﺟ ٢ نهر ١٥٨٦ و ١٩٤٨
(١٦) معجم المطبوعات العربية لسركيس ﺟ ١ نهر ٣٥

حرارة الصيــــف

بين العلم والأدب

للأستاذ ضياء الدخيلي

يعاني اليوم قراء (الرسالة) في أنحاء الشرق الأدنى سطوة عامل فيزيائي يقسو على سكان بعض البلاد العربية ويخف بطشه بآخرين – ذلك هو وبل الأمواج الحرارية التي تصلي شواظها في هذه الفترة من الزمن فتنصب على رؤوسنا من هذا الكوكب الملتهب الذي سجر لظاه رب السموات. فلنتحدث عن حرارة الصيف وما قال عنها العلم الحديث مخصصين عنايتنا بأثرها في أجسامنا، ثم فلنعرض شكوى الأدباء وعويل الشعراء من وهج بلاد العرب وكيف كانوا يتقون عنتها في المملكة العربية قبل أن ينعم أديسون وإخوانه – على البشرية بالكهرباء ومراوحه السحرية، ومولدات الثلج في لحظات تنقلب خطر الأماني عبر المدابر إلى تخوم الوجود.

لعل من مظاهر الرفق ومجالي العطف على القارىء الكريم أن لا تقحمه أبحاث علماء الفيزياء في الحرارة فالمثل يقول: (لا تكن أنت والزمان عليها). فليس من لطف الإنسانية أن تعرض به غمار تلك الأبحاث المتعبة التي يشكو اليوم من ويلاتها الطلبة وهم على أبواب الامتحانات فلننفض عن حديث ما تسببه الحرارة من تمدد الغازات والسوائل والأجسام الصلبة، ولنضرب صفحاً عن معاملي التمدد الحجمي والطولي فلا نريد أن نبني جسوراً فولاذية في رأس القارئ الكريم وهو يرزح تحت سطوة الحر في بلاد العرب، ولنترك للطلبة استظهار الحرارة النوعية وبحث الانصهار والجمود تلك الأبحاث التي اعتادوا أن يجمدوها في حافظتهم لساعة الامتحان الحرجة حتى إذا انصرفوا في لهو العطلة الصيفية انصهرت معلوماتهم، فكأنما كانت تماثيل من الثلج أذابتها حرارة الصيف وتلاشي قانون (بويل) كما غاب نفس بويل قبله في عالم العدم وتصاعدت المعلومات متطايرة بعد أن تكاثفت لخزنها لأوقات الامتحان ولنصم آذاننا عن تعريف الفيزيائيين للحرارة بأنها (عبارة عن طاقة حركية للجزيئات) ولكن لنصغ إلى ذلك الأديب يعرف لنا الحرارة تعريفاً شعرياً. وقديماً عد اليونان في علم المنطق من أساليب البرهنة – القياس الشعري وضربوا له المثل بقولهم: (الخمر مية مروعة) فالحق أن التعريف الشعري والبرهان الشعري أقوى تأثيراً في نفوس الناس من الأبحاث الدقيقة القائمة على الإحصاءات، فأكثر الذين اندفعوا إلى الهيام بالخمر جذبتهم أخيلة الشعراء الذين وصفوها بأنها ياقوتة ذائبة تطير بالنفوس بأجنحة الخيال في عالم الأفراح. ولو قالوا إنها سم يشل مراكز التفكير العليا لكانوا أقرب إلى الحقيقة. ولكنهم يبعدون عن تفكير الجماهير العمياء التي لا يقودها غير عاطفتها. وإذن فلنترك الأديب يحدثنا عن الصيف وحره فيقول (كما أورده النويري في نهاية الأرب في فنون الأدب).

(أوقدت الظهيرة نارها، وأذكت أوارها. فأذابت دماغ الضب، وألهبت قلب الصب. هاجرة كأنها من قلوب العشاق، إذا اشتعلت بنيران الفراق، حر تهرب له الحرباء من الشمس، وتستجير بمتراكب الرمس، لا يطيب معه عيش، ولا ينفع معه ثلج ولا خيش، فهو كقلب المهجور، أو كالتنور المسجور) هذا مما قيل في حرارة الصيف نثراً، وأما الشعر فحسبك منه ما يلي: قال ذو الرمة:

وهاجرة حرها واقد | نصبت لحاجبها حاجبي
تلوذ من الشمس أطلاؤها | لياذ الغريم من الطالب
وتسجد للشمس حرباؤها | كما يسجد القس للراهب

(في المنجد: حاجب الشمس ناحية منها وأول ما يبدو منها مستعار من حاجب العين، وحواجب الشمس أنحاؤها) وقال مسكين الدارمي:

وهاجرة ظلت كأن ظباءها | إذا ما اتقتها بالقرون سجود
تلوذ بشؤبوب من الشمس فوقها | كما لاذ من حر السنان طريد

وقال ابن النقيب:

في زمان يشوي الوجوه بحر | ويذيب الجسوم لو كن صخرا
لا تطير النسور فيه إذا ما | وقفت شمسه وقارب ظهرا
وبود الغصن النضير به لو | أنه من لحائه يتعرى

وقال أيضاً:

يا ليلة بت بها ساهداً | من شدة الحر وفرط الأوار
كأنني في جنحها محرم | لرأس للعودة في استتار

وكيف لا أحرم في ليلة ... سماؤها بالشهب ترمي الجمار

وقال آخر :

ويوم سموم خلت أن نسيمه ... ذوات سموم للقلوب لوادغ

ظللت به أشكو مكابدة الهوى ... فكوزي ملآن وبالي فارغ

وقال محمد بن أبي الثياب شاعر اليتيمة :

وهاجرة تشوي الوجوه كأنها ... إذا لفحت خدي نار توهج

وماء كلون الزيت ملح كأنه ... بوجدي يغلي أو بهجرك يمزج

وقال الثعالبي :

رب يوم هواؤه يتلظى ... فيحاكي فؤاد صب متيم

قلت إذ مسني حره حر وجهي ... « ربنا اصرف عنا عذاب جهنم »

ولقد تقدم من ذلك الأديب أن وصف حر الصيف بأنه : (لا يطيب معه عيش ولا ينفع معه ثلج ولا خيش) . فما هو الخيش ؟ يحدثنا الطبري وياقوت في معجم الأدباء إنه كانت عادة الأكاسرة أن يطين سقف بيت في كل يوم صائف فتكون قيلولة الملك فيه وكان يؤتى بأطباق الخلاف (وهو صنف من الصفصاف طوالا فتوضع حول البيت ويؤتى بقطع الثلج الكبار فتوضع مابين أضعافها . وكانت هذه عادة الأمويين أيضاً ؛ ولكن في عهد المنصور العباسي اتخذت طريقة أخرى للتبريد فكانوا ينصبون الخيش الغليظ ولا يزالون يبلونه بالماء فيبرد الجو (في المنجد : الخيش نسيج خشن من الكتان)

وكان أهل الترف في ذلك العصر يستعيضون عن دخول السراديب بنصب قبة الخيش أو بيت الخيش .

وفي لطائف المعارف للثعالبي (وكان الخيش ينصب على قبة ثم اتخذت بعدها الشرائج فاتخذها الناس) . ويحكي المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم ، في معرفة الأقاليم) : أنه رأى في دار عضد الدولة البويهي بشيراز بيوت الخيش يبلها الماء على الدوام بواسطة قنوات حولها من فوق .

قال الأستاذ آدم متز في كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) يظهر أن طريقة استعمال الخيش وسيلة لتبريد الهواء كانت شائعة في بغداد جداً ؛ إذ يحكي عن أحد القواد في القرن الرابع الهجري أنه لم ير فرقة من الجند أتت من بغداد أهلا للقيام بغزوة هامة لأنهم في رأيه قد ألفوا بيوت دجلة وشرب النبيذ والثلج وبيوت الخيش المبلل وسماع القيان كما نقل ذلك ابن مسكويه .

وقال الغزولي في مطالع البدور : وكان يستعمل في البيوت صيفاً مروحة تشبه شراع السفينة تعلق في سقف البيت ويشد بها حبل يدير بها وهي تبل بالماء وترش بماء الورد ؛ فإذا أراد الرجل أن ينام وقت القائلة جذبها بحبلها فتذهب بطول البيت وتجيء فيهب منها نسيم بارد طيب .

وجاء في جمهرة الإسلام للشيرازي وكتاب المحاسن والمساوئ للبيهقي (أنه كانت حراقات دجلة التي يستعملها رجال الدولة في غدوهم ورواحهم يمد فيها الثلج ويعلق عليها الخيش المبلل بالماء وكانت ترخى على الخيش ستور الكرابيس) .

وقد رأيت في كتاب أساس البلاغة للزمخشري ما نقله عنه في تاج العروس من أن (الحراقة هي سفينة خفيفة المر) . أما الكرباس فهو كما في المنجد : الثوب الخشن جمعه كرابيس والكلمة من الدخيل .

وكان أهل بغداد ينامون في ليل الصيف على سطوح البيوت يدل على هذا ما حكاه معظم المؤرخين كابن الأثير في الكامل وابن الجوزي في المنتظم وغيرهما — من ظهور حيوان يسمى الزرب في عام ٣٩٤ ه كان بحسب زعم الناس يأكل الأطفال بالليل من على السطوح وما كان حيواناً بل وهماً نشأ من وجود اللصوص . ويقول ابن الجوزي في المنتظم إنه في تموز من سنة ٣٠٨ه برد الجو حتى نزل الناس من السطوح وتدثروا باللحف ؛ هذا في مدينة بغداد أما في آمل وهي كما في المعجم لياقوت أكبر مدينة بطبرستان في السهل لأن طبرستان سهل وجبل — لقد كانت السطوح في آمل مسنمة لكثرة الأمطار صيفاً وشتاء كما نقل ذلك الاصطخري في مسالك الممالك .

أما في اليمن فيحدثنا أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب — فكان الغالب على صنعاء البرد حتى كان إذا اشتد بها الصيف ودخل الرجل ليقيل على فراشه لم يكن له بد من أن يدثر لأن البيوت باردة بسبب القصة (الجصة) التي تشبع بها (تطلى) بواطن البيوت لأن الجص في صنعاء يخلط بمادة غروية هناك فيظهر البناء بعد جفاف الجص بريق جوهري كبريق المصقول من الجواهر ؛ وتشبه الجدران في بياضها الفضة . وربما دخل الرجل في صنعاء في المخدع على فراشه وأطبق عليه الباب وأسبل الستور والسجف فلا يتغير ضياء البيت لما في الجدران والسقف من الرخام ؛ بل إنما كان في السقف رخامة صافية

تظر هوم الطائر بظله عليها إذا حاذاها وتؤدى الرخامة لمارن الشمس إلى القصة تتقبلها بجوهرها وبريقها .

ولكن في سامراء من العراق كانوا يستخدمون السراديب تحت الأرض . قال آدم متز : لقد كشفت لنا حفائر سامراء عن طريقة بناء الدور عند أهل العراق في القرن الثالث الهجري حيث كانت تشتمل على سراديب للسكنى مهيأة بوسائل التهوية . ولا نجد فيما بين أيدينا من أخبار القرن الرابع في العراق ما يدل على استعمال السراديب للسكنى في فصل الصيف ولا تشير إلى ذلك أية حكاية من الحكايات الكثيرة التي ترجع إلى ذلك العصر

وفي كتاب العيون أنه كان السرداب في ذلك العصر عبارة من مكان تحت الأرض فيحكى مثلا أن الخليفة المقتدر أمر بحفر سرداب لمؤنس وأن مؤنساً وقع فيه ومات ، هذا ما نقله ولكن الذي في كتب التاريخ أن مؤنساً هو الذي قتل المقتدر على يد أصحابه .

ويقول عريب وكان عند رجل في داره سرداب تحت الأرض عليه باب من حديد . بل يحكى عن مروج الذهب أنه في عهد المنصور سير جماعة من أبناء علي إلى الكوفة وحبسوا في سرداب تحت الأرض لا يفرقون فيه بين ضياء النهار وسواد الليل . وفي مقاتل الطالبيين عن رجل كان مسجوناً مع يحيى العلوي في عهد الرشيد ، وكان الرشيد يعذبه تعذيباً مؤلماً حتى مات من وقع السياط ، وكان اسم السجن المطبق وهو تحت الأرض وكان من شدة ظلامه لا يعرفون أوقات الصلاة فيه .

وإذن فالسراديب لم تكن في صدر الدولة الإسلامية متعارفاً استعمالها لاتقاء الحر في بغداد ، وإن كانت موجودة في السجون التي يحبس بها العلويون الذين كان بنو العباس يخشون من ثوراتهم قال آدم متز .

ويرجع أصل عادة اتقاء الحر الشديد بالنزول في السراديب إلى بلاد آسيا الوسطى حيث يحكي لنا الرحالة [وانغ بن تي في عام ٩٨١ م أن بعض أهل تلك البلاد يسكنون في الصيف غرفاً تحت الأرض . أما في بلاد الإسلام لذلك العهد فقد كانت مدينة زرنج أكبر مدن سجستان ومدينة ارجان بفارس أول مدينتين اتخذ أهلها في الصيف سراديب تحت الأرض يجرى فيها الماء كما نقل ابن حوقل في كتابه صورة الأرض .

قال ياقوت في معجم البلدان إن أرض سجستان كلها رملة سبخة والرياح فيها لا تسكن أبداً ولا تزال شديدة تدير رحيهم وطحنهم كله على تلك الرحى .

وفي القرن الخامس الهجري يذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو أن من خصائص مدينة ارجان أن فيها من الأبنية تحت الأرض مثل ما فوقها وإن الماء يجري تحت الأرض وفي السراديب وفي أشهر الصيف يستروح الناس فيها .

ويذكر المقريزي بعد ذلك بقرون (إن من محاسن مصر أن أهلها لا يحتاجون في حر الصيف إلى الدخول في جوف الأرض كما يعانيه أهل بغداد) . وأما اليوم فقد ضربت مدينة النجف الأشرف في العراق الرقم القياسي في استعمال السراديب ، وذلك لأنها واقعة على أرض مرتفعة في الصحراء قد جذب المسلمين إليها قبر الإمام علي (ع) فازدحم حوله علماء الإسلام فقامت حركة علمية جبارة وقصدها طلاب العلم من أطراف العالم الإسلامي ، ففيها الطلبة من أنحاء إيران والعراق ومن لبنان وسورية والحجاز والصين والهند وأفغانستان وسمرقند وبخارى وغير ذلك فهي مقر (الأمم الإسلامية المتحدة) وإن هؤلاء المهاجرين يعانون من قسوة الصيف ولذع هاجرة الصحراء — أعنف التعذيب لو لم يتفنن النجفيون في نحت السراديب تحت الأرض فيحفرون في طبقات الأرض حفراً عميقاً جداً حتى يصلوا إلى طبقة صخرية يسمونها (السن) فيضربونها بالمعاول ضرباً قوياً عنيفاً حتى يثقبوا تحتها ممراً فينتهون إلى طبقة رملية سريعة الإزالة وإن كان في تضاعيفها صخور كبيرة فإذا حفروا تحتها فسحة تسع أهل البيت ورفاهية أووا إليها في هاجرة الصيف فإذا البرد الشديد الذي لا يطاق إلا بالتدثر باللحف على حين أن الحرارة الملتهبة على سطح الأرض تشوي الوجوه ؛ وبذلك يستغني النجفيون عن الثلاجات ولاسيما إذا وصلوا تلك السراديب بالآبار حيث تجهزهم بالهواء النقي من أعلى . ولعل هذه العادة اقتبست من أواسط آسيا حيث يكثر في النجف المهاجرون من تلك الأنحاء الإسلامية . وتبلغ السراديب أرقى درجات الاتقان في مدارس الفقهاء ولاسيما مدرسة السيد كاظم اليزدي التي من محاسن مرافقها (الزنبور) وهو طريق للهواء يهبط من أعلاه ثم يمر تحت أرض السرداب فيكون تحتها تجويفاً يقلل الرطوبة فيه . ثم إن ذلك الطريق ينتهي بثقب مشرف وسط أرض السرداب فيخرج منه الهواء اللطيف البارد . وهكذا يحتمي الطلبة لتطيب لهم دراسة الفلسفة والمنطق والرياضيات وعلوم الأدب والشريعة وقد أنتجوا الكتب الكثيرة فيها .

(البقية في العدد القادم) ضياء الدخيلي

رثـاء الفنان (*)

الأستاذ الشاعر على محمود طه

أسائلكم : ويح من يجيب ! ماخطبكم ؟ لم يمت نجيب
ما مات من أضحك المآسي من قدر صنعه عجيب
وصير الدمع في المآقي على ابتساماته يذوب
وجمّل العيش للحزانى فكل حال به تطيب
وأنصف الدهر من حظوظ تخطىء في الناس أو تصيب
وشكّل الزيف من حياة مرقّع ثوبها القشيب
كادت لتمثيله الليالي تبكي ، وتستعبر الخطوب
وكاد منه الزمان يغضي تحرّجا ، وتستغفر الذنوب
معلّم ماله ضريب معهده المسرح الحبيب
فتى كطير الربيع روحا موهوبة نفسه وهوب
البارع اللفظ في بيان يحار في صوغه الأديب
كأنه ما تسلّ لمبتى وعهده بالنوى قريب
حلو الإشارات في رجمات له بتصويرها ضروب
وصوته ملء كل سمع تهفو لإيقاعه القلوب
أستاذ جيل إلى نداه عواطف الجيل تستجيب
يسلم الشعب أو يسلي من شفه الهم والكروب
في قصة حرّة حوتها ملهاته الحلوة الطروب
أو ملحة عذبة جلاها أسلوبه الساخر اللعوب
يلقي بها ضاحكا ويمشي وقلبه ساهم كئيب
حياتنا مثلما رآها صورها ناقد لبيب
مصرية الذوق لم يشبها تصنع لفظه مشوب
ولم تلفق ولم تنمق بها الأباطيل والعيوب
حقائق لم يوار منها مجامل هازل هيوب
مدرسة ما بها كتاب ومنبر ماله خطيب
لا رين للدارسين فيها طلابها فتية وشيب
ويستوي جاهل لديها وعالم فاهم أريب
الكل فيها لهم متاع وفر ومن عله نصيب

يالهفة الفن حين أودى وما اعترى نجمه شحوب
ولا زوى أفقه ظلام له على موجه وثوب
للغاية لم يحل بدون قضاؤها الناجح الرحيب
حيث ينادي وحيث يرجى مشيه الرائع الخصيب

قم يا نجيب انفض المنايا واسمع تجد أمة تجيب
مشت على موكب ملوّع يخنقه الحزن والنحيب
مصر التي قدّرتك حيا يا أيها النابغ الغريب
بمثل ما شيعتك يوم الـوداع لم تسمع الشعوب
وأنت بالعهد من هواها ربيبها وابنها النجيب
لم ينس « فاروق » من إليها انتمى ، ومن باسمها يهيب
ومن رعاها ، ومن حماها هواه أو صدره الرحيب
ملك تلوذ الفنون منه بسدّة حصنها القلوب
في مفرق الفن في يديه لؤلؤة حرّة خلوب
تود منها الشموس قبسا وتحسد الشهب أو تصوب
أشعة المجد من سناها عن ملكه الضخم لا تغيب !

على محمود طه

(*) ألقيت في حفلة التأبين التي أقامتها نقابة الصحفيين أول أمس للمرحوم الأستاذ نجيب الريحاني

٣٢٠٥٣

مالتـــــوس

ومشاكل السكان في العالم

للأستـــاذ فؤاد طرزي

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

لا يتوقع إلا قلائل من الباحثين إمكان الوصول إلى قانون عام في موضوع نمو السكان ينطبق على الشعوب وفي كل الأزمان؛ ولهذا تحتل اليوم مشكلة التوازن القسم الأكبر من أعمال الباحثين في مسائل السكان وفي مسائل المواد الغذائية على السواء. ولكن فروض مالتوس كانت بمثابة قنبلة ظلت متقدة طوال عصور التاريخ من حين نشر هـذا العالم نظريته. وإذا كان هناك من يميل إلى إنكار هذه الفروض فيجب عليه تبعاً لذلك أن يطلع على الملاحظة الدقيقة التي أثبتها لينارد هوبوس والتي قال فيها « إن نظرية مالتوس ذاتها كانت من جملة الأسباب في هزيمة تنبؤاتها فقد كان لخواها أن السكان يتزايدون بسرعة فائقة في الوقت الذي تجرى فيه عمليات غير مباشرة تعمل للحد من هذه الزيادة ».

ويظن علماء الإحصاء اليوم بأن نظرية مالتوس تكون أكثر نفعاً متى اعتبرت على ضوء صلتها بعصور الدورة الإحصائية العالمية وهي العصور التي تمثل مراحل مختلفة مرت بها شعوب ومناطق مختلفة. وقد بذل فرانك نوتستين ومساعدوه في جامعة برنستون جهوداً كبيرة لاكتشاف هذه الدورة وترتيب هذه المراحل كما يلي: المرحلة الاحتمالية، والمرحلة الانتقالية، وتمثلت في التجربة الأوروبية الغربية التي شهد مالتوس قسما منها، ومرحلة الهبوط الأولى، (وهذه المرحلة لم ترد في نظرية مالتوس).

يخمن الأستاذ نوتستين بأن ما يقارب نصف سكان العالم هم اليوم في مرحلة النمو الاحتمالي بالقياس إلى العصور الإقطاعية. وإن الشرق الأدنى وجميع آسيا (باستثناء اليابان والاتحاد السوفياتي) والبلدان المتأخرة في جنوب ووسط أمريكا لا تزال، مع بعض الاختلافات، في هذه المرحلة التي سبقت عهد مالتوس. فهناك ولادات كثيرة ولكن عدد السكان لا يزال ثابتاً بسبب ارتفاع معدل الوفيات. وهذه هي البلدان التي يمكن إنقاذ النفوس فيها بالوسائل الطبية والصحية ولا يمكن فقدانها إلا بسبب الفقر والمجاعة وفق طريقة مالتوس الأصلية. ومع أنه من الصعب أن نشرح بأي قدر من الدقة الظروف التي تحيط بشعب ما وتؤدي إلى انعدام الطرق الإحصائية الحديثة فيه، إلا أنه من المحتمل اتخاذ الصين كمثل لتقلبات إحصائيات السكان المتصلة بهـذه المرحلة. فنحن نعرف أن الوسائل الطبية والصحية لم تنتشر إلى الآن بين الجماهير الصينية، ولذلك فإن عدداً من العلماء يشكون في إمكان حصول أية زيادة ثابتة بين الشعب الصيني الضخم. وعلى كل فني حالة حدوث أي تغير في النسبة المتعادلة بين معدل الولادات ومعدل الوفيات فإن للصين شعباً قادراً على إحداث زيادة كبيرة حالما تهبط معدلات الوفيات.

وقد ظهر في الماضي أن نمو الشعب الصيني قد جرب الأسلوب الدوري الذي جربه العالم الغربي. فحين تسلمت أول عائلة جديدة الحكم شاع السلام واستتب النظام ورجح معدل الولادات على معدل الوفيات بين طبقات العمال المتزايدة وبين الجماعات المثقفة. ولكن الصين رغم بلوغها مرحلة عالية من مراحل المدنية لم تعمل على تحسين مواردها الآلية كما فعلت أوروبا؛ ولذلك بلغ فيها عدد السكان حد الإشباع. ثم جاءت المجاعات والثورات والحروب فخففت من ضغط السكان. وقد حدثت دورة مالتوس هذه أربع مرات منذ القرن الثاني بعـــد المسيح. واليوم تعيش المرحلة الاحتمالية في الصين في حالة سكون فلا يحس خلالها بضغط السكان ولكن من غير أن تتبدى الزيادة فيها كما يحدث في اليابان.

وأما في الهند فإن تنظيم الأساليب الصحية وطرق مكافحة الأمراض الوافدة وتحسين طرق المواصلات واتساع سيطرة القانون والنظام قد ساعد على إحداث هبوط في الوفيات أدى إلى حصول زيادة في السكان مقدارها ٨٣٫٠٠٠٫٠٠٠ خلال عقدين (من ١٩٢١ إلى ١٩٤١) وهكذا فإن الهند مستعدة الآن لقبول

زيادة أخرى ، ولا توجد حتى الآن دلائل تشير إلى أنها ستمر بالأدوار التى مرت بها كل من فرنسا وإرلندا .

وقد دخلت اليابان فى المرحلة الثانية من مراحل الدورة فحدثت فيها زيادة فى السكان أثر انخفاض معدل الوفيات . إن إمكانيات التصنيع قد استغلت فى هذه البلاد بنطاق واسع ثبت منه بأن فى إمكان الشرق أيضاً أن يخفض الولادات . ولم يسجل معدل الوفيات فى اليابان انخفاضاً ملموساً ؛ بل إن معدل الولادات فى الفترة الحالية تحول نحو الهبوط . وقد أظهرت الإحصائيات اليابانية بين ١٩٢٠ و ١٩٤٠ نتائج مشابهة للاحصائيات التى حصلت فى إنكلترة وويلز بين ١٨٨١ و ١٩١٠ . وخلال العقدين اللذين تخللا الحربين الأولى والثانية كانت معدلات الوفيات والولادات تشبه تقريباً مثيلاتها فى إنكلترة قبل ٤٠ سنة ؛ وبهذه المناسبة من المهم أن نتذكر ، كما يقول الأستاذ نوتستين : « بأن التمدين والتهذيب فى اليابان قد قطعا أشواطاً بعيدة ؛ إلا أن نمو السكان كان من نوع التضاعف الثلاثى فى القرن الواحد . وقد حصلت أكثر من نصف الزيادة بعد أن ابتدأ معدل الولادات فى الهبوط . ومع أن اليابان قد قدمت للعالم مثلا للتصنيع السريع فإن الاتجاه القادم لنمو السكان فيها سيعتمد على المدى الذى ستؤثر فيه الهزيمة على تطورها الاقتصادى . ولكن علماء السكان يعتقدون بأن النمو لا يزال يفعل فعله بين الشعب اليابانى .

وإذا عدنا إلى روسيا التى تملك مساحة واسعة من الأرض بين أوربا وآسيا ، وتلتقى فيها خصائص الشرق والغرب المتنوعة التى تتميز بها ظاهرة النمو ، وجدناها تجنى الآن ثمار النهضة الإحصائية ، لأنها البلاد الوحيدة القادرة على استغلال كل إمكانيات النمو الانتقالى . فقد حصل فيها توسع صناعى كبير ، وانخفض معدل الوفيات بنتيجة التقدم الصحى والطبى ، ولم يتخلل عهد التصنيع فى هذه البلاد سوى هبوط ضئيل فى معدل الولادات ، ومع ذلك فإن هذا المعدل حسب ما هو ملاحظ آخذ فى الازدياد ؛ لأن السياسة القومية تشجع بنشاط العائلات الكبيرة ، يضاف إلى ذلك أن الوضع الحالى للاتحاد السوفياتى يشير إلى احتمال حصول زيادة فى عدد النساء خلال العقود القادمة . ويتوقع فرانك لوريمر المستخدم فى شعب الإحصاء فى روسيا فى كتابه « سكان الاتحاد السوفياتى » حصول زيادة فى السكان بين عامى ١٩٤٠ و ١٩٧٠ تقدر بـ ٧٠٫٠٠٠٫٠٠٠ . وقد وصلت روسيا فى الوقت الحاضر إلى المرحلة الاعتبارية من الدورة ، ودخلت كدولة أوربية فى مرحلة الهبوط الأولى . وإذا ما استقرينا قوانين السكان وجدنا أن معدل النمو فى روسيا لا يفوق معدل الزيادة الكبيرة فى نفوس سكان جاوه مثلا تحت ظل النظام الاستعمارى الهولندى ، ولكن فى روسيا مجالات نمو جديدة تتمثل فى الحركة الصناعية النامية بينما سبق لجاوة أن اجتازت المرحلة النهائية من مراحل التطور الاقتصادى الزراعى . وبالإضافة إلى ذلك أن الاتحاد السوفياتى يملك داخل حدوده منطقة بكر واسعة لا تملكها أية دولة كبيرة أخرى وهى منطقة سيبيريا . فليس هناك من شك بأن روسيا تنتظر توسعاً كبيراً فى السكان ، ولكن السؤال الذى يدور فى بقية أنحاء العالم هو فيما إذا كان فى مستطاع روسيا أن تحتفظ بهذه الزيادات داخل حدودها .

وعندما بحثنا المرحلة الثالثة للدورة الكبرى — مرحلة الهبوط الابتدائى — لم نسر خلف مالتوس لأن توقف الزيادة وهبوطها لم يكونا معروفين فى الفروض المالتوسية . فبلدان أوروبا الوسطى والشمالية الغربية كانت أول المناطق التى دخلت فى المرحلة الثالثة ، فى حين أن فرنسا والسويد وإسلندا واستراليا وانكلترا وويلز ستواجه هبوطاً فى عدد السكان ابتداء من سنة ١٩٧٠ . أما إرلندا فقد استمادت كما رأينا قواها ولكنها لم تحقق أية زيادة . ويمكن إضافة ألمانيا إلى هذه المجموعة بسبب خسائرها فى الحرب . كما تعانى بولندا نقصاً فى السكان لم تعانه أية أمة أخرى فى العصور الحديثة . إلا أن طبيعة تكوين شعبها تساعد على العلاج إذا ما توفرت الظروف الاقتصادية الملائمة . ويقول علماء الإحصاء إن شعوب أوروبا الوسطى وأوروبا الشمالية الغربية قد بلغت مرحلة النضج ، وقد أدى تحديد النسل بينها إلى إنقاص نسبة الشباب بينما رفع تقدم مستوى المعيشة من نسبة ذوى الأعمار الطويلة . وما دامت أعمار أغلبية النساء فى هذه المنطقة قد تجاوزت معدل الخصب فإن ذلك سيجر وراءه زيادة فى طول الأعمار يؤدى إلى توسع إنتاجى إضافى . ففى الولايات المتحدة واستراليا وزيلندا الجديدة من الممكن أن تعيش المرأة البيضاء إلى

سن السابعة والستين، كما أنه من الممكن أن تستطيع المدنية الأوربية أن تزيد معدل الحياة عشر سنوات أخرى خلال العقدين القادمين

وقد كان متوقعاً من دراسة معدلات ١٩٣٥ — ١٩٣٩ أن يبلغ نمو سكان أميركا نهايته حوالي ١٩٨٠ . إلا أن الولايات المتحدة قد خرجت من الحرب العالمية الثانية بأرباح غير متوقعة في النفوس ، فقد فاقت الولادات مقدار عدد الضحايا بين الشعب الأميركي الذي لم يدخل بعدُ مرحلة الهبوط الابتدائي .

وعند هذه المرحلة من مراحل دراستنا سندخل منطقة يعيل عند بلوغها علماء الإحصاء في العصر الحديث إلى وضع إرشادات تجريبية فقط بشأنها . إن معرفة ما يمكن أن يحدث وماذا يستحب أن يحدث ، إذا ما سارت القوى الطبيعية في مجراها الطبيعي ، تدفع الأفراد لأن يستعملوا عقولهم وإرادتهم للوصول إلى نتائج أكثر تكيفاً مع حاجاتهم ورغباتهم . وهناك بعض الباحثين لا ينظرون إلى ظاهرة النقص في السكان نظرة جدية ، في حين أن هذه الظاهرة قد بنيت على أسس الاتجاهات التي توجه الوقائع والقوانين . ولكن يتساءل اليوم عمن يستطيع التحدث من التقلبات الاجتماعية التي ستظهر نطل هذه الاتجاهات ؛ إذ أننا نرى أن ظاهرة زيادة السكان من الممكن أن توجه توجيهاً يساير حركات القوى الاجتماعية والاقتصادية التي تعترضها . فهل يمكن أن تفعل مثل ذلك بالنسبة لمشكلة الخوف من نقص السكان ؟ وهل ضبط النسل يمثل ثورة على بعض انحرافات النظام الاقتصادي والصناعي؟ وهل يمكن أن يوقف إذا ما تحسنت مؤسسات اجتماعية أخرى تحسناً مناسباً ؟ وللإجابة على هذه الأسئلة يجب أن نترك المرحلة النهائية من مراحل دورة السكان مفتوحة ، معترفين بأنه من المحتمل حصول هبوط مطرد بين السكان يسري قانونه على البلدان المتقدمة في المدنية الغربية . كما أن هناك بعضاً من الخبراء يعتقدون بإمكان ظهور نوع من أنواع الحركات الميكانيكية توازن بين السكان لتقليل الهبوط الناجم من تحديد النسل .

وإذا ما أردنا أن نطبق هذه التطورات التاريخية على مسائل السكان في الشرق جابهتنا في الحال — وعلى الأخص في البلدان العربية — الصعوبات الناجمة عن تأثر الطرق الإحصائية الحديثة التي يمكن الاعتماد عليها لتنظيم دراسة متقنة موحدة . وكل ما نستطيع أن نقوله في هذا الصدد هو أن البلاد العربية لا تزال في مرحلة النمو الاحتمالي ، وأن مجتمعاتها مستعدة لتقبل زيادات أخرى نظراً لكثرة الموارد الطبيعية غير المستغلة إلى الآن ، ولانحطاط وسائل الاستغلال الزراعي والصناعي فيها . ولذلك فإن مثل كل السكان الحديثة لا يمكن أن تطبق على هذه المجتمعات إلا بعد أمد طويل نسبياً .

(بغداد) **فؤاد طرزي**
المحامي

تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوي

«كانون نساء» للأديب اللبناني سهيل ادريس :

لصاحب هذه المجموعة القصصية مجموعتان أخريان صدرتا من قبل وكتبت عنهما في مكان آخر غير «الرسالة»؛ ومعنى هذا أنني تتبعت هذا القصاص اللبناني الشاب منذ أن كتب أول قصة حتى فرغ من آخر قصة ... هناك تطور لا شك فيه ، فالوثبة الأولى كانت وثبة الأديب الذي يعالج فن القصة لأول مرة : جناح يصعد به نحو القمة ، وجناح يهبط به إلى السفح ، وبين الصعود والهبوط تلمح موهبة أصيلة ينقصها الزمن والمران لتنضج وتكتمل وهكذا كان سهيل إدريس في «أشواق» .

ومضت فترة أخرى أخرج بعدها مجموعته القصصية الثانية «نيران وثلوج» ... في هذه الوثبة الجديدة لمست أن القصاص الشاب قد قطع مرحلة بعد بها عن نقطة البدء حتى أوشك أن أن يبلغ منتصف الطريق . لقد كان خط السير في المجموعة الأولى بكثرة تعاريجه ، يشعرك أن المؤلف لا يصل إلى نهاية الشوط إلا وهو مكدود ثائر الأنفاس ! أما في هذه المجموعة الثانية فقد استطاع ان يبصر المسالك التي تدفع به في خط مستقيم تقل فيه الدروب والمنحنيات ... وكانت محاولة ثالثة تبلورت فيها القطرات الأولى في بوتقة التجربة النفسية والفنية ، وإذا «كانون نساء» دليل مادي حي على أن الجهد والمثابرة جديران بخلق عمل فني مهما حوى من مآخذ فهو جدير بالتهنئة ! وتبقى بعد ذلك حقيقة نسجلها قبل أن نسجل غيرها من حقائق ، وهي أن سهيل إدريس كاتب قصة أدبية سواء في مجموعته الأولى أو في مجموعته الثانية أو في مجموعته الثالثة ... هذه في رأيي ميزة كبرى ؛ لأن القصة العربية القصيرة التي نطالعها في هذه الأيام قد فصلت عن هيكل الفن التعبيري الرفيع ! لقد أخرجها القصاصون العوام من حظيرة الأدب ليلحقوها بحظيرة الريبورتاجات الصحفية !

هذا هو قصاص الأمس أشرت إليه في كلمات ، أما قصاص اليوم فمن حقه على أن أحدد اتجاهه القصصي الجديد على ضوء هذه الخطوط الفنية : الخط الأول هو خط النزعة التحليلية التي تضحي بالحادثة في سبيل الفكرة ذات الطابع التصويري ، والخط الثاني هو خط التمثيل للواقع الحسي عن طريق النماذج النفسية والبشرية ، والخط الثالث هو خط تحديد الزاوية التي تلائم بين الفكرة التصويرية والنموذج النفسي ، والخط الرابع هو خط امتداد نقط الارتكاز الفنية في ثنايا العرض ، والخط الخامس هو خط التقاء العناصر الرئيسية التي تكون الهيكل الأخير للقصة الكاملة ... هذه الخطوط التي تبرز التصميم الفني العام للقصة ، أو هذه الخيوط التي تنسج الثوب الفني العام للقصة ، قد توفرت منها أشياء في «أشواق» ، وتوفرت منها أشياء أخرى في «نيران وثلوج» ، وتوفر منها الكثير في «كانون نساء» . هناك في «عودة الماضي» و «أنانية» و «الطايشة الطاهرة» و «لعنة الحب» و «القصاص» و «دموع في الكونتننتال» ! ... إن هذا الترتيب الذي تراه هنا قد أقمته على أساس من الصدق الفني أولا ، وعلى أساس من الصدق الشعوري ثانيا ، وأخيراً على مدار اللمسات الفكرية والنفسية لما حدثتك عنه من خطوط القصة .

بعد هذا أقدم إليك قصة من قصص هذه المجموعة هي «عودة الماضي» ... هذه القصة في رأيي من القصص التي تعرض لك موهبة الأستاذ إدريس خير عرض ، وتصور ملكته القاصة أكمل تصوير ، وتطلعك على نموذج قصصي ناضج يشير إلى فنه ويدل عليه . إنها قصة الحب بين فتى وفتاة ، الحب القوي الجارف الذي يجمع في النهاية بين قلبين تحت ظل وريف من الرباط المقدس وتمضي الأيام وتصبح الفتاة امرأة ويصبح الفتى رجلا ويتخطى كلاهما دور الشباب ! ويبقى الحب بين الزوجين ما بقي الوفاء المتبادل والبيت الآمن والأبناء الأحباء . ولكن القدر يضرب ضربته ليتصدع البناء ويتفرق الشمل ويتناثر عقد السعادة حبات من دموع ! ستة عشر عاماً ذاق فيها العش الجميل الهادئ ما ذاق من ألوان البهجة وضروب النعيم ، ثم ختمت أيامه بأبشع ما يتلقاه الأحياء من معاني الألم والحسرة والعذاب ... لقد عصفت ريح الغواية بوفاء الزوجة المخلصة فنبذت منطق العقل وانقادت لمنطق

العاطفة ، وفي سبيل حبها الجديد نسيت الزوج والبيت والولد ، وهذا الماضي الأثير بكل ما فيه من ذكريات ! ولم يكن الشيطان الذي طرق أبواب الجنة غير أخ تجمع بينه وبين أخيه رابطة الدم وينتهي الأمر بالزوجة الوفية إلى أن تمل السير في طريق الشباب الأفل لتنحرف إلى طريق الشباب المقيم ، ولا بد من جمرة تشتعل تحت الرماد لتلهب الضمير الذي مات .. وفي رسالة يتلقاها الزوج من شريكة حياته تقع عيناه على قصة حبه الشهيد ! لقد مضت تستعرض فصول القصة كما وقعت على مسرح الحياة : مبتدئة بدور الزوج ، معرجة على دور الزوجة ، منتهية بدور الحبيب . ولم تنس المهاجرة وهي في غمرة الوفاء للذكرى الباقية أن تطلب الصفح والمغفرة !

هذا هو الإطار الخارجي لقصة الأستاذ إدريس ، إنني لو اقتصرت عليه لبدت لك القصة هيكلا عظميا عارياً من اللحم والدم والروح ... إن الحياة تسكن هناك ، في تلك الصورة النفسية التي تعرض طبيعة امرأة ؛ امرأة يضع المؤلف بين يديك مفتاح شخصيتها وكل شخصية تمثل المرأة الخالدة ! وهذه هي الصورة التي حملتها رسالة الزوجة إلى الزوج ، أقدمها إليك منتزعة من معرض السطور : « لقد حمل نايف إلى حونا الاضطراب والخوف والعذاب ، ولكنه مع ذلك هز مني الأعماق أعنف الهز ، وكشف أمام عيني دنيا جديدة تزخر بالتناقضات وتمتلىء بالمفارقات . ولست أدري يا صبري كيف أعبر لك عن الأثر الذي تركه أخوك في نفسي ساعة وصوله ! » ... « وسرعان ما أسبلت جفني ، كأنما خشيت أن تفر من عيني صور كثيرة ، جلية ، تشد إلى الماضي بعذافيره فتبعث في نفسي فيضاً غنياً من المشاعر العذبة . أجل ! إن الماضي تدفق ساعتذاك يا صبري كأنه نبع جار يحمل في ثنايا أمواجه ذكريات وذكريات » ... « وفتحت عيني مرة أخرى ، لا يا صبري ! لم يكن نايف يشبهك ، وإنما كان هو نفسك ... أجل ! كان أنت في شبابك ، يوم عرفتك للمرة الأولى . لقد رجع في نايف ماضي شبابك يا صبري ، شبابك ذاك الذي أغرمت به قبل أن يوله وعشقته يوماً حتى الجنون ! » ... « لا يا صبري ! أنا لم أخنك ! إنني مقيمة على شدة إخلاصي لك ، إنني أحبك في نايف ، وسأظل أحبك إلى الأبد . أراك تود أن تسألني : وأولادنا ! وحاضرنا ؟ ومستقبلنا ؟ . لا تكن ساذجاً يا عزيزي ! أما أدركت أنه لم يبق لي شيء بعد ، وأنه لا حاضر عندي ولا مستقبل غير هذا الماضي الذي يعود ؟! » .

أرأيت كيف حلت الفكرة الناضجة من جسم القصة محل الروح ، وكيف سما بها النموذج النفسي النابض إلى الأوج ؟ ... هكذا تخلق القصة ، وهكذا تحيا ، وهكذا تتنفس ، وهكذا يكتب لها البقاء ! إنك تستطيع أن تجد في هذه المجموعة القصصية نماذج أخرى لا أقول إنها تبلغ هذا المستوى الممتاز ، ولكنها تقترب منه وتنبع من نفس النبع وتدور في نفس الأفق .

وتسألني بعد هذا كله ماذا ينقص سهيل إدريس ككاتب قصة ؟ .. إنني أعود إلى ما سبق أن كتبته عنه في مكان آخر غير « الرسالة » ، أعود إليه لأحذف منه فقرات وأقتطف فقرات ، تبعاً لما جد من أسباب الكمال وما بقي من أسباب القصور .

إن كل ما يؤخذ على فن الأستاذ إدريس ظاهرتان : الظاهرة الأولى هي أنه لا يكاد ينظر إلى الحياة إلا من زواياها الضيقة ، تلك التي لا تتمثل الخلجات النفسية إلا في إنسان يحب وإنسانة تحب ، مع أن في الحياة زوايا متعددة وألواناً لا حصر لها من المشاعر الإنسانية ! أما الظاهرة الثانية فهي خلو قصصه من النماذج البشرية ؛ إن سهيل إدريس لا يقدم إليك نموذجاً بشرياً واحداً يمكن أن يمثل شخصية من الشخصيات المحلية في المجتمع اللبناني الذي يعيش فيه ، ومن هنا كان نقص النماذج البشرية في قصصه يفقدها عنصراً ممتازاً من عناصر التصوير الوصفي ، ذلك الذي يعني برسم الملامح الخارجية للشخوص كما هي في واقع الحياة ! وتسألني مرة أخرى عن حكمي الأخير على هذه المجموعة القصـ فأقول لك : إنها عمل فني جدير بالتهنئة !

« من وراء الأبد » ورسالة من شرق الأردن :

قبل أن أكتب إليك ما أريد كتابته عن قصتك الخالدة « من وراء الأبد » المنشورة في الرسالة الغراء العدد (٨٣٨) ، أقدم إليك تحية التقدير والثناء ، تحية القلب من الأعماق إلى روحك الطهور المثالي وقلبك الخفاق ، بجيش الإبداع في شجون القلب وشئون الفكر .

لقد ساقت إليك الأقدار فتاة أحلامك ، فوجدت فيها الجمال الروحي الذي كنت تنشده في سماء الوهم يوم أن هبطت إليك وأنت على أرض البشر لتأخذ باقة من الزهور فأحببتها ، وأنت تعرف جيداً زيارتها لأهلها الدفين يوم كنت تقدم لها تلك الباقة في صباح كل ثلاثاء ، لتعطر ثرى ذلك القبر ... ثم تقدمت إلى تلك الروح بغير تردد حين وجدت أنها ضالتك المنشودة ، لتملأ فراغ قلبك ودنياك . فلم كرهت ذهابها إلى القبر بعد الزواج ، حتى أدى ذلك إلى القطيعة والفراق ؟ أليس الحب شعوراً مقدساً قبل الزواج وبعده ؟! ولماذا لم تستطع أن تملأ هذا الفراغ الموحش من قلبها (إن كان موجوداً) بعد الزواج بأحاسيسك وشعورك وأنت صاحب الأحاسيس والشعور والخيال ؟!

إن الحب لا يبلغ أعلى مراتب السمو إلا بالتضحية وأنت هنا لم تضح بشعورك وقلبك في سبيل إسعادها ... إذ الحب المثالي العميق يقضي عليك في هذه الحالة أن تقدم إليها باقة الزهور ، ولو أنك فعلت لتناست ذلك القبر الكئيب الجثيم الرابض في صحراء الإمام ، ولأصبح مع الأيام طيفاً ضئيلا وبالتالي تمسي وأنت مسيطر على أحاسيسها ووجدانها مالكا كل قلبها بأطيافه وأحلامه هذا إذا فرضنا جدلاً أنها ما زالت تحن إلى أهلها الأول ، ولكنها وهبت لك قلبها وأخلصت لك الحب طيلة مدة الزواج ، بدليل أنك لم تستشف من خلال شعورها أن هنالك طيفاً يملأ فراغ قلبها وتتشوق إليه بقلب منجوع وأنت صاحب الشعور والنظارات العميقة ، ولولم تكن تلك العودة لما اكتشفت سرها الذي لم يكن إلا وفاء بعهد .

ألم تشعر أخيراً يا سيدي أنك سببت لها نكبة أخرى فوق نكبتها الأولى ، وسببت لك لوعة تصرخ بين الضلوع كلما عاودتك ذكراها ؟ .. أنا في انتظار جوابك .

محمد دويدار

عمان — شرق الأردن

أود قبل كل شيء أن أشكر للأديب الفاضل هذه العاطفة الكريمة النبيلة التي أملت عليه هذه الكلمات ... الحق أنني لم ألتق في حقيبة البريد أجل من هذه الرسالة ولا أطرف حول قصتي « من وراء الأبد » ؛ هذه القصة التي حركت مشاعر الأديب الأردني الفاضل وأثارت شجونه ، حتى دفعته إلى أن ينقل إلى هذا الفيض من المشاركة الوجدانية العميقة التي عشت في أجوائها يوم أن عكست من الحياة على الورق مأساة فنان جنى عليه الخيال !

لقد ظن الأديب الفاضل أن القصة قصتي الذاتية ، ولعل هذا الظن قد استقر في نفسه من أن القصة كانت في رسالة .. الحق يا صديقي أنني قد نقلت القصة من حياة الناس حيث ألف القدر فصولها لامن حياتي ! وصدقني إذا قلت لك إنني مازلت واقفاً على الشاطئ أرقب كل زورق حالم يمخر عباب النهر المقدس ، منتظراً أن تدفع أمواج السعادة إلى شاطئي بالحلم الجميل الكبير ، بالزورق الذي يمكن أن يحمل إلى أعذب أماني العمر .. وأعني بها رفيق القلب وشريك الحياة ! متى تتحقق الأحلام ؟ متى تتألق الأيام ؟ لست أدري !!

لفتة إنسانية للأستاذ العقاد :

قرأت في « المصور » منذ أيام مقالا تحليليا للأستاذ العقاد حول نفسية المنتحر ، وقد كتب المقال بمناسبة حادث الانتحار الذي وقع في وزارة المعارف وراح ضحيته موظف بائس .. ولست أبغي من وراء هذه الكلمة أن أعقب على هذا التحليل النفسي الموفق الذي ورد في مقال الأستاذ العقاد ، وإنما أحب أن أشير إلى كلمة حق تهز كل صاحب ضمير كضمير الرجل العادل وزير المعارف . كلمة حق نطق بها العقاد الإنسان حين طالب بمعاقبة المسئولين عن الحالة النفسية التي دفعت بالموظف البائس إلى التخلص من الحياة ، فيما إذا ثبت بالتحقيق الدقيق أن رؤساءه قد حالوا بينه وبين حقوقه التي كان يطالب بها كانسان يحتاج إلى شيء من العطف والرعاية !

إننا نسجل هذه اللفتة الإنسانية للأستاذ العقاد ، ونتوجه بها في نفس الوقت إلى معالي وزير المعارف .

أنور المعداوي

الأدب والفن في أسبوع

للأستاذ عباس خضر

نحن وأدباء المهجر :

كتب الأستاذ حبيب كتابا من نيويورك إلى جريدة الأهرام، يقول إنه التقى هناك بالأستاذ عبد المسيح حداد صاحب جريدة « السائح » التي تصدر بالعربية في أمريكا ، بعد عودته — عودة الأستاذ حداد — من رحلته الطويلة في البرازيل والأرجنتين وتشيلي ، فأراد أن يستطلع رأيه في الأدب العربي بأمريكا الجنوبية ، فقال الأستاذ حداد :

إن هناك فرقاً أساسياً بين السوريين واللبنانيين في أمريكا الجنوبية وفي أمريكا الشمالية ، ويتجلى هذا الفرق بأجلى مظاهره في البرازيل ، فالسوريون وغيرهم من الناطقين بالضاد هنا — في أمريكا الشمالية — هم عرب ولكن أولادهم ليسوا عربا . أما في البرازيل فهم عرب جيلا بعد جيل » ثم ذكر تعليلا لذلك أن العرب في البرازيل — حيث تسنى له أن يدرس أحوالها درساً وافياً دون غيرها — يحرصون على تعليم أبنائهم وبناتهم اللغة العربية ، وأن هناك كليتين عربيتين تتبعان برنامج البلاد في التعليم المدرسي وتلقنان العلوم العربية بأجمعها من صرف ونحو وبيان وبلاغة وعروض وإنشاء ، وبعض العلوم الأخرى بالعربية ، وقال إنه سمع كثيرين من خريجي هاتين الكليتين يخطبون ويلقون قصائد بالعربية من نظمهم ، وذكر مع الأسف أن إحدى الكليتين قد اضطرت إلى إقفال أبوابها بعد أن خرجت خمسة عشر ألف طالب ...

وإنا هنا — حين نقرأ هذه الأنباء — لتهفو نفوسنا وتتطلع إلى تلك الآفاق التي انبثقت منها ألوان جديدة معجبة من الأدب العربي الحديث ، واسترعت أنظار الأدباء ، وجرت في مشاعر الشباب ؛ تلك الآفاق التي لمع فيها جبران خليل جبران وأمين الريحاني وميخائيل نعيمة وغيرهم ، وقد امتازت آدابهم بالحرية والانطلاق والتجديد .

تتطلع نفوسنا إلى أدباء العرب في المهجر الأمريكي ، فنحب أن نطلع على كتاباتهم وتتصل أفكارنا بأفكارهم ، كما نحب أن تتوافر لهم وسائل الإبقاء على اللغة العربية وآدابها وازدهارها هناك . وإنه ليسوؤنا أن نتفقد المجلات العربية الأمريكية في القاهرة مثلا فلا نجدها ، وتلك الأنباء تنقل إلينا أن هناك صحافة عربية زاهرة ، ونود أن نقرأ لهم ويقرؤون لنا ، ونبدي الرأي فيما يكتبون كما يبدون آراءهم فينا ، وجملة القول أن نعاملهم معاملة أدبية كاملة تعود علينا وعليهم بالفائدة المرجوة في عالم الفكر والأدب والاجتماع .

ولست أدري من المسؤول عن الانقطاع الحالي بيننا وبين أبناء العمومة في عالمهم الجديد ، ولكنا نذكر هذا الانقطاع فنتألم له ، في الوقت الذي نرانا فيه نسعى إلى توثيق الأواصر الثقافية بين جميع بلاد العالم ما عدا العالم العربي في أمريكا ، ولنا مكاتب ثقافية في لندن وباريس وواشنطون للتعاون الثقافي بيننا وبين هذه البلاد ، فليت وزارة المعارف تنشىء مكتبا على غرار هذه المكاتب في إحدى العواصم الجنوبية بأمريكا حيث تكثر الجاليات العربية ، ويكون من عمل هذا المكتب تحقيق التعاون والتبادل الأدبي بيننا وبين أدباء المهجر ، كما يعمل على إمداد المعاهد العربية هناك بما تحتاج إليه من مؤلفات وأساتذة .

والإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، لماذا لا تمد يدها إلى هناك ؟ وهي غير مقصورة على الدول المشتركة في الجامعة فالمفروض فيها أن تخدم الثقافة العربية في كل مكان ، ويا حبذا لو ضم « متحف الثقافة العربية » شيئا مما هناك ، وهي ترسل بعثات المخطوطات إلى مختلف البلاد الغربية والشرقية فلماذا لا ترسل بعثة لرواد الثقافة العربية المعاصرة في البرازيل والأرجنتين وتشيلي ؟

وليس الاتصال المنشود بين البلاد العربية وبين أبنائها في أمريكا ، مقصورة فوائده على الآداب والثقافة ، بل هو إلى ذلك يخدم قضايا العرب في الهيئات الدولية ، وإنهم ليستجيبون لداعي

القومية العربية بدافع الشعور المشترك الذي يعززه تنظيم الصلات، ويتحقق لنا بذلك ما لا نناله باستجداء الأمم الغربية التي تخذلنا أقرب مشاعرها من خصومنا.

ونحن نرى الدول الغربية تعمل دائبة على نشر لغاتها وثقافاتها في خارج حدودها وخاصة في بلادنا الشرقية، وهي ترى بذلك فيما ترمي إلى توسيع نفوذها وكسب أصدقاء موالين لها، فما أجدر البلاد العربية أن تعين تلك الجاليات العربية الكبيرة في العالم الجديد، على تعزيز لغتها وثقافتها العربيتين. ولن يحتاج ذلك فيما أعتقد إلى جهود وأموال كبيرة، بل يكفي القليل مع العناية بتنسيق وسائل التبادل والاتصال.

تقدير وتبعات:

في غمرة الأسى على فقيد فن التمثيل المرحوم نجيب الريحاني يستطيع المرء أن يلاحظ ظاهرة تدعو إلى الارتياح، بل تبعث الاغتباط.

ذلك أنك لا تكاد تفتح مجلة أو تطالع صحيفة منذ توفي الريحاني في الأسبوع الماضي، إلا ألفيت بها رثاء له نثراً أو شعراً، وقد حفلت بعض الصفحات بالكتابة في تاريخه والتحدث عن فنه وأثره في هذا الجيل وما إلى ذلك مما يتصل به.

ولم يكن ذلك إلا صدى لما يجيش في صدور الناس على اختلاف طبقاتهم من الأسف لفقد هذا الرجل والشعور بمكانته باعتباره ممثلاً أدى رسالته الفنية على أتم وجه. ومعنى هذا أن الجمهور في مصر قد عرف قيمة فن التمثيل وقدر أهله إذ أصبح لهم في حسه وشعوره ما هم أهله من مكانة واعتبار، فإذا قضى علم من أعلام التمثيل أخذ الحزن عليه مظهراً عاماً، واستشعر الجميع فجيعتهم فيه، وهذا ما عنيته في صدر هذه الكلمة بالظاهرة التي تدعو إلى الاغتباط، وهي كذلك لأنها تدل على تطور عظيم في حياتنا، إذ تغيرت نظرتنا إلى التمثيل والممثلين من حال إلى حال، ولا تزال للحال الأولى آثار باقية وإن كانت في سبيل الزوال، تلمح ذلك فيما تنشره بعض الصحف من أن يوسف وهبي أو عبد الوهاب أو غيرهما من الفنانين يعتزم ترشيح نفسه من دائرة كذا في الانتخاب القادم لعضوية مجلس النواب، وهي تنشره على أنه أمر طريف جديد، ولعله كذلك فعلا لأننا لم نعهد بعد

كشكول الأسبوع

□ أخذت وزارة المعارف في العمل على تحقيق رغبة ملكية سامية ألقت إليها، وهي أن يلحق بكل متحف من المتاحف التي تشرف عليها الوزارة بالأقاليم قاعة محاضرات ومكتبة يتردد عليها الراغبون في التزود من العلوم والآداب والفنون.

□ تلقت وزارة المعارف كتاباً من جامعة درهام بإنجلترا، ذكرت فيه أنها اعتزمت إنشاء قسم للدراسات الشرقية يبدأ عمله من أول السنة الدراسية المقبلة، وطلبت موافاتها بطائفة من الكتب العربية القديمة والحديثة، وبعضها من تأليف مصريين معاصرين.

□ كانت اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية قد كتبت إلى وزارات معارف الدول العربية، طالبة إلى كل منها تأليف لجنة قومية لتنسيق العمل الثقافي بين دول الجامعة، وخاصة تمثيلها في المؤتمر الثقافي العربي، ولم تتلق اللجنة إلى الآن نبأ بتأليف هذه اللجان إلا من وزارة المعارف المصرية على الرغم من مضي مدة طويلة، وأخيراً بعثت بكتاب دوري تستحث فيه سائر الدول العربية أن تسارع إلى تأليف اللجان المطلوبة كما فعلت مصر.

□ لاحظت إحدى دور الكتب بنيويورك أن بعض الكتب يسرق من قاعة المطالعة، فأرادت أن تعرف أي الكتب يسرق أكبر عدد من نسخه، فكانت النتيجة أن الكتاب الذي يسرق كثيراً هو التوراة.

□ تتخذ الآن إجراءات لتعيين الأستاذ محمود محمد شاكر في القسم الأدبي بدار الكتب المصرية.

□ يرى الأستاذ علي محمود طه وكيل دار الكتب، أن يخصص قسم في قاعة المطالعة لشؤون السودان، يضم كل ما في الدار من مؤلفات في هذه الشؤون، ويطلق عليه «ركن السودان».

□ بعثت جريدة الأهرام إلى الأستاذ علي محمود طه بخمسة عشر جنيهاً، ثمناً لقصيدته «مراثي البحر» في عددها الخاص بالصيف، ولما علم بذلك الأستاذ توفيق الحكيم أبدى رغبته في أن يكون شاعراً ... ولعله الآن يعالج قرض إحدى المحاولات.

□ صدر أخيراً كتاب «الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام» للأستاذ محمد سيد كيلاني، وهو يشتمل على تاريخ الحروب الصليبية وآثارها في الحياة الاجتماعية وفي الأدب نثراً وشعراً، ثم التعريف بمشاهير الكتاب والشعراء في ذلك العصر. وقد أحسن المؤلف بإكثاره من الشواهد، لأن أدب تلك الفترة أكثره مخطوط لم تعرفه المطبعة بعد، فجاء الكتاب جامعاً مفيداً، على ما فيه من بحث مستفيض.

□ وجهت الجامعة العربية إلى وزارة الخارجية كتاباً تطلب فيه الاتصال بوزارة المالية، للسماح لدور النشر في القاهرة أن تصدر الكتب إلى البلاد العربية دون اشتراط ورود أثمانها عن طريق البنوك، وذلك أسوة بما يتبع نحو الصحف والمجلات المصرية.

نواباً من المشتغلين بهذه الفنون مع جدارتهم بأن يأخذوا المكان اللائق بهم في قيادة الأمة .

وقد كان الريحاني من القلائل الذين أعلوا قدر التمثيل في مصر إذ جعلوا له أهدافاً في المجتمع وساروا به ارتقاء العلوم وسائر الفنون في مصر ، فأثبتوا أنهم من المضطلعين بترقية الأمة والناهضين بها . والريحاني أول ممثل ظفر بنيشان النيل ، وأول ممثل تفضل جلالة الملك بإرسال مندوب عنه لتشييع جنازته ، وأول ممثل أعرب جلالة الملك عن حزنه عليه بعبارة كريمة سامية .

وبعد ، فذلك هو الوعي القوي نحو فن التمثيل وتقدير أهله ولاشك أن هذا التقدير يلقي على فنانينا تبعات نحو فنهم والإخلاص له وإفادة الناس منه ، وعلى مقدار شعورهم بهذه التبعات ونهوضهم بمقتضياتها يتوقف مصير الفراش الذي نما وأثمر بعض الشيء ولا يزال في حاجة إلى تعهد وعناية ورعاية ليؤتي أكله على ما يشتهي الجميع .

قضية « عيسى بن هشام » والإذاعة :

عرضت على قاضي التحضير بمحكمة مصر الكلية يوم الثلاثاء الماضي ، القضية المرفوعة من خليل بك المويلحي مؤلف كتاب « حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن » ضد الإذاعة ، لأخذها تمثيليات من الكتاب وإذاعتها بلغة عامية مبتذلة ، على ما فصلناه في عدد مضى من الرسالة . وقد أجل نظر القضية إلى جلسة ٧ نوفمبر المقبل أمام محكمة مصر الكلية .

وأذكر بهذه المناسبة أني وقفت على مقال عن ذلك الكتاب للمستشرق الفرنسي هنري برز عضو المعهد الفرنسي بدمشق ، في المجلد العاشر من مجلة الدراسات الشرقية لسنة ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ قال فيه : « إن حديث عيسى بن هشام يعد في طليعة الكتب المؤلفة في الأخلاق والعادات والنقد الاجتماعي ، وما من شك في أنه كان العامل الأول في بناء صرح النهضة الحديثة للغة العربية ، وإن سلاسة لغته وسجعه غير المتكلف يعيدان إلى الذاكرة أسلوب الكتابة الفنية لجنكور والإنشاء الخيالي لهويسمان . ولقد صور المويلحي الحياة المصرية في شتى مظاهرها الاجتماعية بقلم جريء وصراحة واضحة وإخلاص بلغ حد القسوة في تصوير الحقائق الواقعة تصويراً دقيقاً أذكرنا كتابة بلزاك وفلوبير . وإنه لمن المتعذر على أي أديب أن ينسج على منوال حديث عيسى بن هشام أو أن يصل إلى سمو أسلوبه مقلد ، فقد بلغ المثل الأعلى للإنشاء الوصفي ودقة تصوير المجتمع ولقد بزغ نوره في فجر النهضة الحديثة للأدب العربي ، فحمت آيته مختلف الطبقات الأدبية وهدى نوره الرجعيين القدامى من كتاب الأدب ، واسترشد بسناه المجددون من الأدباء فسلكوا من بعده الطريق المعبد إلى المستقبل المثمر »

والواقع أن حديث عيسى بن هشام يعد المحاولة الوحيدة الناجحة في عصره لإحداث فن قصصي جديد في الأدب العربي الحديث ، ومن المحاولات المخفقة التي عاصرته « ليالي سطيح » و « مصارع اللؤلؤ » ، ومما يؤسف له أشد الأسف أن تتخذ الإذاعة ذلك العمل الأدبي التاريخي الخالد ، ذريعة إلى إحداث فن جديد في تمثيلياتها العامية الهابطة المسفة ، فمن يجري فيه الحوار بمثل : (يا حلمبوحة) و (يا مدهول يا منيل على عينك) وغير ذلك من ألفاظ اللغة التي يدعو إليها سلامه موسى بدلا من العربية الفصيحة !

والإذاعة بذلك لا تكتفي باستباحة كتاب لم يتصدق به عليها مؤلفه ، بل تعمد إلى تحريف أهدافه عن مواضعها وتهوي به إلى رواجها العامية ، بعد أن سلك سبيله إلى نهضة أدبية مثمرة

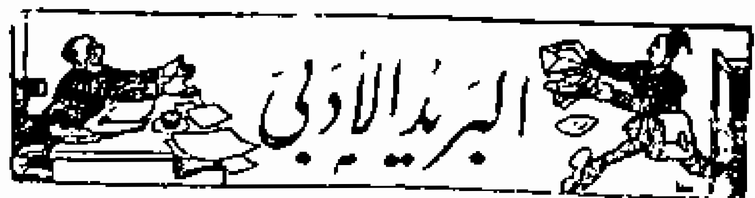
خمر وجمر :

تلقيت من الأستاذ عدنان أسعد رسالة ذكر فيها ما دفعه إلى كتابة ما كتبه في « الرسالة » عن كتابه « خمر وجمر » معتذراً من تقريظه بأنه سيعتبره مأجوراً ، قال : « إن جماعة من الأدباء والشعراء الأصدقاء أجمعوا على أن كتاب (الخمر والجمر) كتاب يستعصي على الفهم ويحتاج معاني شعره ونثره إلى التذييل والشرح الطويل . ومن ثم ذهبوا إلى أن أية كلمة يكتبها الكاتب في تقريظ الكتاب لا تخرج عن كونها واحداً من اثنين : إما أن الكاتب المقرظ قد غمض عليه معنى في بطن الشاعر أو ظهر الناثر .. فأراد أن يظاهر الناس عليه وفهمه بكلمة التقريظ حتى يقول الناس : قرأ وفهم ثم هضم . وإما أنه « مأجور » أو « مدفوع » بدافع الصداقة ، وللصداقة تكاليف ، أو « مرجو » يجيب رجاء الراجي

ولا يخيب آمال ذوي الآمال فكان جوابي على هؤلاء إنكم أرضيون ماديون والكتاب على شاكلة شأنه روحاني المذاهب سماوي الجناح مطلق السراح .. وصاحب القلب الكبير والروح الطليق من أسهل السهل عليه أن يسترجع الكتاب من التلاف إلى التلاف في جلسة أو جلسات بغير ما حاجة إلى تذييل أو شرح طويل».

وأقول للأستاذ عدنان: إني أراك تقرظ الكتاب، ولا يسعني — على الرغم من بيانك السابق — إلا أن أعتبرك «مأجوراً» من المؤلف... ولك تحياتي.

عباس خضر



رد وتصحيح:

حضرة الأستاذ الفاضل رئيس تحرير مجلة الرسالة:

يأبى الأستاذ كاتب التعقيبات إلا أن تكون له الكلمة الأولى والأخيرة في إنتاج الأدباء وفي ذواتهم، وتثور ثورته، إذا ما وجد كلمة حقة هادئة أو متحمسة، رداً على تعقيباته، وهذه مجافاة للروح الأدبي الرياضي المنشود.

وقد كان نصيبي من الرد على بعض تعقيباته، حملة شعواء على شخصي وأدبي، في العدد (٨٣٣) المؤرخ ٢٠/٦/١٩٤٩ أما حملته على شخصي فسأترك جزاءه لمجال آخر، ويهمني الآن تصحيح الرد على ما جاء في هذه التعقيبات من وقائع غير صحيحة

فقد زعم الكاتب أني سعيت إليه بوساطة رسول كريم لكتابة كلمة، ولو صغيرة من كتابي «الشعر المعاصر» وأن هذا الرسول الموفد من قبلي — كما يقول — دميت قدماه في سبيل هذه الكلمة وإن الكاتب صارحه بأنه لو كتب عن هذا الكتاب لأهان قلمه وأهان (الرسالة) وأهان عقول القراء وهذه قصة خيالية، أبدعها التوهم، فإن مركزي الاجتماعي، وتاريخي الأدبي الطويل، وخلق الترفع، تدحض جميعاً، ما أسند إليّ من لهفة لكلمة منه، يقدمني بها كما يقول، إلى الناس، فلست في حاجة إلى التقديم، وبحوثي الأدبية والاجتماعية، منذ أكثر من عشرين سنة وكتبي التي أخرجتها كفلت لي التقدير من الخاصة.

وأما عن كتابي «الشعر المعاصر» فقد حفلت به الهيئات الأدبية وأنصفته الأقلام الممتازة، وحفلت به وزارة المعارف واقتنت منه عدداً «ضخماً» لمكتباتها كما ازدانت مجلة الرسالة ذاتها بكلمة منه من قلم أحد محرريها، وهو زميل للكاتب المعقب في التحرير، ومما جاء في قوله بمجلتكم الصادرة بتاريخ ٤/١٠ سنة ٤٨ «لا يسع متتبع الحركة الأدبية إلا أن يلتفت لهذا الكتاب ويهتم به لأنه كتاب جديد في المكتبة العربية، وهو أول مؤلف في موضوعه» وقوله في خاتمة كلمته: «وحسب الأستاذ المحرر أنه وضع بكتابه هذا لبنة في بناء الأدب العربي الحديث».

فما رأي الأستاذ المعقب في زميله، وما رأيه فيما كتبته السيدة الأديبة «ابنة الشاطئ» وهي من جماعة الأمناء التي ينتمي إليها إذ قالت عن الكتاب الذي يباع بالرطل في الأسواق «والكتاب يكاد يكون دائرة للشعراء المعاصرين فلم يدع الأستاذ المؤلف شاعراً عرفه أو قرأ له إلا سلكه في هذه الدراسة، وقدم نماذج من شعره، ويجد القارئ إلى جانب هذا عرضاً طيباً لمذاهب النقاد وأساليبهم في وزن الشعر وتقويمه، كما يقرأ خلاصة لمقاييس النقد الأوربي الحديث مطبقة على شعرنا المعاصر».

وزعم الأستاذ المعقب أن الدافع لكلمتي بالمقتطف «النقد والتعقيب» راجع إلى أنه لم يكتب كلمة عن كتابي، ونسي أنه ذكر في صدر كلمته أني تلميذ للأستاذ سلامة موسى وأن كلمتي في المقتطف كانت دفاعاً عنه. والحق يشهد بأني لا أدافع إلا عن كرامة الأدباء كيفما كانت آراؤهم وأني قد وهبت قلمي المتواضع للدفاع عن الحقيقة منذ تخرجي في الحقوق من ثلاثة وعشرين عاماً إلى اليوم، وقد شهدت منابر القضاء والخطابة والأدب عفة لساني وقلمي، كما سجلت صفحات الكتب مبادئ الأدبية والديمقراطية والوطنية! فقول الأستاذ المعقب بأني من التشكيلة العجيبة، التي يريد إرهاب كل من يحاول تصحيح آرائه بها يحمل اتهاماً باطلاً، وما كان يسوغ بأي حال من الأحوال أن يلوذ الأستاذ الكاتب إلى مثله.

وليس هذا المكان مجالا للرد على ما ورد في تعقيبات الأستاذ الكاتب من عبارات مهينة لا داعي لذكرها ؛ لأن قاموسنا الأدبي قد خلا من مثلها خلواً تاماً .

ولكن لنا أن نطرح هذه الأسئلة تعقيباً على كلمة الأستاذ الكاتب وعلى طريقته في الكتابة ، هل يجوز للكاتب من الوجهة القانونية أو الأدبية أن يترك عمل الأدباء ويتناول أشخاصهم ؟ وهل يباح للأدباء الدفاع عن أنفسهم ، والرد على نقد ناقديهم ؟ وهل يصح في شرعة الأدب محاولة الغض من كرامة الأدباء للاختلاف في الرأي ؟

والجواب الصحيح على هذه الأسئلة ، وهو محور النقد الأدبي السليم أن الناقد ليس حاكما بأمره وليس له تناول أشخاص الأدباء تناولا غير كريم وأن للأدباء أن يفندوا النقدات الموجهة إليهم وهذه الآراء التي ندين بها هي محور الخلاف بيننا وبين كاتب التعقيبات .

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

هذا هو الرد الذي بعث به إلى « الرسالة » الأديب صاحب التوقيع وفي الأسبوع المقبل يقرأ ويقرأ معه القراء تعقيبنا على هذا الرد .

أنور المعداوي

الألفاظ بين الحقيقة والمجاز :

يعرف أبناؤنا دلالات الألفاظ في حقائقها ومجازاتها ، و « العلاقة » الرابطة بينها سواء أكانت المشابهة أم الإرسال ، وقد كتب مدعي تذكير الضبع — بتصحيح موهم — ينفي رواية (قومي لم تأكلهم الضبع) ... (بقومك) مما لا يبعد الضبع عن أن تكون مؤنثة ! فإن التصحيف في المضاف إليه واقع في أشعار الفداني ، بل إن « زهر الآداب » وغيره تحتشد شواهد متعددة دالة على عدم إبعاد المعنى مع وجود هذا التصحيف .

لكن الكاتب — كدأبه — يريد الضرب في متحى دعوى البحث ؛ فتوقعه الورطة في مأزق المغالطة ؛ فالإضافة إلى ياء المتكلم أو كاف الخطاب لم تخرج الضبع على أنها « اسم للحيوان المعروف » ! وهي مؤنثة !

أما المباحثة في الحقيقة والمجاز ؛ فنكبر « الجمع اللغوي » عن عرضهما في معرض الإفادة ، لكنا نشير إلى أن التجوز بلفظة « الضبع » إلى السنة المجدبة لن يبعدها عن وضعها في حقيقتها ، لأن الحقيقة أصل المجاز !

فما إجداء صياغة الكاتب ومكاثرته وهو لم يستشهد على « تذكير » الضبع ، ولم يسق في « تعقيبه » الأخير ما يباعد بين وضع اللفظ والتجوز فيه ؟ .

إننا لم نخطئ في الاستشهاد لأن حقيقة اللفظة باقية على مدلولها في إفادة الحيوان ، ولم نبعد في الرواية لأن اختلافها لا يقدح في صحة الإيراد ، ولم نجانب الصواب في التأنيث لعدم ورود ما يباعده ؛ فلعل الكاتب لا يتورط فيما يدعو إلى المؤاخذة والتوجيه

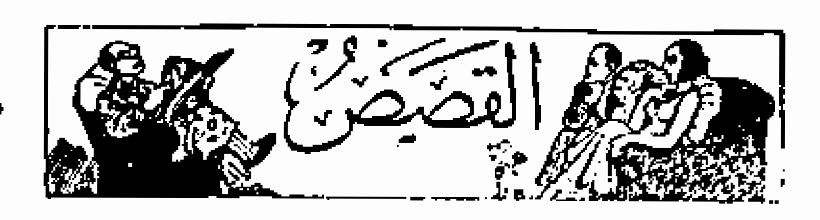
(بور سعيد) أحمد عبد اللطيف بدر

تعقيب على تعقيبات :

قد وردت بالتعقيب الأول من تعقيبات الأستاذ الفاضل أنور المعداوي بالعدد (٨٣٢) من الرسالة — جملة من هذا القبيل : « لم يكن يعرف . لم تكن تتيح » وهي بينة الخطأ . وصوابها — حسب استعمالات العرب — أن ترى على هذه الهيئة : « لم يكن ليعرف . لم تكن لتتيح » ؛ لأن كان المنفية بما ، ويكن المنفية بلم لا يرد بعدها الفعل المضارع إلا مسبوقاً باللام المؤكدة للنفي . ويسمونها لام الجحود .

وقد ورد القرآن الكريم بهذا الاستعمال قال تعالى : « لم يكن الله ليغفر لهم » .

محمد غنيم



صـــــديقان حميمان

للكاتب الإيطالي لويجي بيراندللو

كان جيجي ميار ينتظر مركبة الترام لتقله كالمعتاد إلى طريق باستريتو حيث مقر عمله وكان متدثراً بمعطفه ذلك الصباح ، وقد وضع منديله على أنفه ، ويديه في قفاز انجليزي صفيق وإن المرء إذا ما جاوز الأربعين ، فإن ريح الشمال لا تعد مزاحا .

إن كل امرئ يعرف أن مركبة الترام لن تقبل بأية حال إذا كان في انتظارها . فإما أن تتعطل في منتصف الطريق لا نقطاع التيار الكهربائي ، أو تختار مركبة تمر عليها ، أو شخصاً سيء الحظ تدهمه تحت عجلاتها . وكانت ريح الشمال الباردة تهب بشدة في ذلك الصباح . وجعل جيجي ميار يرفع رجلا وينزل أخرى ، وهو يراقب النهر وقد بدا كأن المسكين يشعر بالبرد القارس أيضاً .

وأخيراً أقبلت مركبة الترام تدندن ، وأخذ جيجي يستعد للقفز فيها وهي سائرة دون أن تقف ، عند ما سمع صوتاً آتيا من بونت — كافور ينادي «جيجي ، أيها الصديق العزيز ، جيجي» فالتفت فرأى سيداً يهرول قاصداً نحوه ، يلوح بذراعين كأنهما عمودا التلغراف . وفي تلك الآونة ابتعدت مركبة الترام . وكان عزاء جيجي على ابتعادها أن وجد نفسه بين ذراعي السيد الغريب الذي لا بد أن يكون صديقاً حميا له ، إذا حكم على ذلك من عنف القبلتين اللتين طبعهما الرجل على المنديل الحريري الذي يغطي وجهه وقال الرجل — أنعم أني عرفتك في الحال ، أيها العزيز ؟! ألا تخجل من نفسك ؟ أعطنا قبلة يا عزيزي ايلوفك هذه السن . إنك تبدو وكأنك كنت واقفاً في انتظاري . وعند ما شاهدتك تمد ذراعك لتتعلق بمركبة الترام اللعينة قلت لنفسي «هذه خيانة محض خيانة» . فقال ميار وقد علت شفتيه ابتسامة متغصبة — نعم ، كنت ذاهباً إلى المكتب .

— أرجوك ، لا تحدثني من مثل هذه الأشياء المنفرة .

— لماذا ؟ — إني أمقت ذلك . في الواقع ألخ .

— أنت شخص غريب الأطوار أتعرف ؟

— نعم أعرف . ولكن خبرني ، إنك لم تكن متوقعاً رؤيتي ، أليس كذلك ؟ إنه يبدو في وجهك .

— حسن ، كلا ... في الواقع .

— لقد وصلت مساء أمس . وأخوك يرسل إليك تحياته . وهو — على فكرة ، ساجعلك تضحك — لقد أراد أن يبعث إليك بكتاب يقدمني فيه إليك ! — فقلت «ماذا ! كتاب تبعث به إلى جيجي الصغير ؟ ألا تعلم أني أعرفه قبل أن تعرفه أنت ؟ نحن صديقان منذ الطفولة ، ورفيقان في الدراسة الجامعية ألا تذكر بادوا القديمة الشهيرة ؟ وذلك الناقوس الضخم الذي لم تكن تسمعه مطلقاً ؟ فقد كنت تنام مثل — مثل — ماذا أقول — مثل الزغبة ! أظن كان يجب أن أقول ، كالخنزير . حسن ... وعند ما سمعته — مرة واحدة — حسبته إنذار حريق ... ما أحلى تلك الأيام ! إن شقيقك في صحة جيدة ، وشكراً لله ، فنحن مشتركان في عمل صغير . وأنا هنا من أجله ، ولكن ، ماذا بك؟ إنك تبدو كالجنازة . أمتزوج أنت ؟

فأجاب جيجي ميار في دهشة وشدة — كلا يا عزيزي !

— على أهبة الزواج ؟ — أمجنون أنت ؟ بعد سن الأربعين ؟ يا إلهي ؟ كلا . لم أفكر في ذلك مطلقاً .

— أربعون ! إنك تبدو في الخمسين أيها الصغير جيجي . ولكن ، لم لا ؟ لقد كدت أنسى أن وجه غرابتك هو في أنك لا تسمع ما يحدث — من الأجراس والسنين . خمسون يا صديق العزيز ، خمسون سنة ، أؤكد لك ذلك . لقد ولدت .. دعني أفكر .. في أبريل عام ١٨٥١ ، أليس كذلك ؟ ١٢ من أبريل .

وصاح ميار قائلا في لهجة من التأكيد — لا تؤاخذني ، في مايو . ولا تؤاخذني أيضاً عام ١٨٥٢ ، أتعرف أحسن مني ؟ ١٢ مايو سنة ١٨٥٢ ، وعلى ذلك فسني الآن ٤٩ سنة وبضعة أشهر

— وبلا زوجة ! هذا عظيم ! أنا متزوج ، ألا تعرف ؟ آه ، علي ، إنها مأساة . ساجعل جانبيك ينفجران من الضحك ، وفي أثناء ذلك ، ساعتبر نفسي بالطبع ، مدعواً للغداء عندك . أين تأكل هذه الأيام ؟ ألا زلت تقصد مطعم باربا القديم ؟

وتعجب جيجي في دهشة بالغة وقال — يا إلهي ، أتعرف أيضاً أني أذهب إلى باربا ؟ أظنك كنت من رواده .

— أنا ، عند باربا ؟! كيف أكون هناك وأنا في بادوا ؟ لقد علمت وسمعت من ذهابك أنت والآخرين ، تقصدون — أيحق لي أن أقول الحانة ، أو الهيكل ، أو مكان الأكل ؟

فأجاب ميار — سمها الحالة ، أو ماشئت ، ولكن إذا كنت ستتناول طعام الغداء معي فلا بد أن أخبر الخادم بذلك .

— صغيرة ، أليس كذلك ؟

— أوه ، كلا ، عجوز يا صديق ، عجوز . فضلاً عن أني انقطعت عن الذهاب إلى باريا . ثم لم أتردد عليه منذ ثلاثة أعوام .

فأنت في سن معينة ... — بعد الأربعين

— بعد الأربعين ، يجب أن تتحلى بالشجاعة ، وتدبر ظهرك للطريق الذي قد يؤدي بك إلى الهاوية . فإن أردت التردي — حسن ، فليكن ذلك ، على أن تنزلق في بطء ، في منتهى البطء وفي خفة ، محاذراً الا تتدحرج ، أو تتعثر فتسقط . حسن ، ها قد وصلنا . سأطلعك على ما قمت به من عمل طيب بسيط لداري الصغيرة

وأخذ صديق جيجي ميار يردد قائلا وهو يصعد الدرج خلفه — في بطء ، في منتهى البطء ، وفي خفة .. عمل طيب بسيط .. دارك الصغيرة . مخلوق ضخم التكوين مثلك يتأنق ! مسكين أنت يا جيجي ! ما الذي فعلوه بك ؟ أحرقوا ذيلك ؟ أتود أن تترقرق عيناي بالدمع ؟

فقال ميار وهو ينتظر حتى تفتح الخادم الباب — حسن ، يجب أن نكون في وفاق مع وجودنا اللعين ، عند هذه المرحلة من العمر . دلل هذا الوجود ، غلفه حتى بالتوافه ، وإلا جعلك تافهاً . إني لا أود بأية حال من الأحوال أن أجد نفسي مدفوناً في حفرة عمقها أربعة أقدام . لا ، لست أنا .

فقال الآخر يحاول أن يجادله في هذه النقطة — إذاً فأنت تعتقد في الرجل أنه حيوان من ذوي الساقين ؟ لا أظن إنك تعتقد ذلك يا جيجي الصغير ؟ أنا أعرف أية مجهودات أبذلها لأظل قائماً على قدمي . صدقني يا صديق ، لو تركنا الطبيعة تسير في طريقها لأصبحنا من ذوات الأربع . إن هذه المدينة اللعينة تهدمنا لو كنت من ذوات الأربع لأصبحت حيواناً متوحشاً جميلا ، ولرقصتك رقصات عديدة بسبب ما حدثتني عنه ، ولأصبحت بلا زوجة ، وبلا ديون ، وبلا هموم . أتريدني أبكي ؟

ودهش جيجي من حديث صديقه ؛ ذلك الذي هبط إليه من السحاب وجعل يتأمله وينقب في أركانه نعته عن اسم ذلك الشيطان ، وكيف ومتى عرفه في بادوا ، سواء في طفولته أو في دراسته الجامعية . واستعرض في مخيلته أصدقاءه الحميمين كل من كان يسهدم في تلك الأيام ، دون أن يطابق أحدهم ملامح هذا الرجل . على أية حال ، أنه لا يجرؤ على سؤاله ، فقد كان يخشى أن يجرح شعوره بعد أن بدت منه كل هذه المودة . فعزم على أن يعرف الحقيقة عن طريق اللف والمداورة .

ومكثت الخادم مدة طويلة دون أن تستجيب إلى قرع الباب فقد كانت لا تتوقع أوبة سيدها سريعاً . وقرع الباب مرة أخرى وأخيراً سمع وقع أقدامها .

وقال لها ميار : ها أنذا قد عدت ثانية أيتها الفتاة العجوز ومعي رفيق فامتني به ، وانتبهي ، فلا يقبل مزاحاً مع صديق هنا ، صديق ذي الاسم الغريب ...

فقال الرجل وهو يضحك مما جعل المرأة لا تدري هل تشاركه ضحكه أو تعبس في وجهه : « إنسان متسلسل من تيس بقرنين ولحية ! » . ولا يميل أحد إلى التعرف بذلك الاسم الجميل ، اسمي . أيتها الفتاة ! لقد جعل وجوه مديري البنوك تلتوي ، والمالئين يترنحون . ما عدا زوجتي . كانت مسرورة به . إنه الاسم الوحيد الذي وهبته لها . ادخل يا جيجي ، ودعني أرى رياشك ومتاعك المسكين . .

وتاه ميار وقد خاب أمله من جراء فشله في معرفة اسمه ، وجعل يطلعه على شقته الصغيرة وغرفها الخمس ، وقد امتلأت بالرياش في عناية وترتيب . وزاد عذابه في غرفة الاستقبال عند ما سمع صديقه يتحدث في مودة كبيرة عن أشيائه العائلية ، ويتطلع إلى الصور القائمة فوق الموقد ويقول :

— وددت يا جيجي الصغير لو كان لي زوج أخت مثلك . لو عرفت أي وغد تزوجت أختي ؟

— أيعامل شقيقتك معاملة سيئة ؟

— كلا ، بل يسيء معاملتي أنا . لقد كان من الهين عليه أن يساعدني في عسري . ولكن لا ، ليس هو الذي يفعل ذلك .

— أرجو المعذرة ، إني لا أذكر اسم زوج شقيقتك .

— لا داعي للاعتذار . إنك لا تذكره ؛ لأنك لا تعرفه . إنه لم يقدم إلى بادو إلا منـذ سنتين . أتدري ما الذي فعله بي ؟ إن شقيقتك كان رؤوفاً بي ووعد أن يساعدني ، إنما قبل هذا التيس أن يبدل سندانى — ولكن صدقني ، لقد رفض أن يفعل ذلك . وشقيقتك ، مع أنه غريب ، قبل أن يأخذ مشاكلي بين يديه

وهو ساخط ناقم عليه . فلأُخبرك عن سبب رفض زوج شقيقتي لقد كانت شقيقته سيئة الحظ فوقعت في شراك حبي . يا للفتاة المسكينة ! لقد سممت نفسها ...

فقال ميار : — توفيت ؟

— كلا ، لقد لفظ جوفها ما ابتلعته ؟ ولذلك شفيت . ولكنك تستطيع أن تدرك أنه أصبح من المستحيل على أن أطأ عتبة دار شقيقها بعد هذه المأساة . يا إلهي ألا نأكل ؟ أصبحت لا أرى من الجوع . أكاد أموت جوعاً كالذئب !

وعند ما كانا يتناولان الطعام على المائدة جعل جيجي ميار يدفعه عن طريق الثقة المتبادلة بين الأصدقاء ، على أن يحدثه من أخباره في بادوا ، لعله بذلك يرق لسانه فيذكر اسمه على الأقل . وكان ضيفه إذ ذاك يزداد شيئاً فشيئاً . فقال له حدثني عن بعض أخبارك — كيف حال ألفيرد مدير بنك إيطاليا ، وزوجه الحسناء وشقيقتها الحولاء ، ألا يزالون في بادوا ؟

وإذا بصديقه ينفجر ضاحكا . فقال ماير في دهشة — ما الأمر؟ أليست شقيقتها حولاء ؟ فرجاه الآخر أن يكف عن أسئلته وقد ارتجف بدنه وتملكه نوع من التشنج من كثرة الضحك الذي كان يحاول كتمانه دون جدوى ، وقال له — أصمت لحظة ، بحق السماء ، أصمت . حولاء ؟ لم أكن أعتقد أنها كذلك . وذلك الأنف القبيح الذي ترى منه عجبا ! نعم إنها نفس المرأة .

— أية امرأة ؟ — زوجتي !

وشده جيجي ماير دهشة . ولم يبق له من قوته إلا ما يستطيع بها أن يتمتم بعض كلمات الاعتذار . ولكن ظل الرجل سادراً في ضحكه أكثر من ذي قبل ، إلى أن هدأ أخيراً ، ثم عبس ، ثم أخذ نفساً عميقاً ، وأخيراً قال : — يا صديقي العزيز ، هناك في الحياة بطولة لا تستطيع حتى مخيلة الشاعر أن تتصورها .

فتنهد ميار قائلا : — نعم ، حقاً ، أنت على صواب ... إني أعرف ما ذا تعني .

فعارضه الآخر قائلا : — إنك لا تعرف شيئاً مطلقاً . أتعتقد أني أتوه من نفسي ؟ أنا البطل . أنا لست إلا الضحية ! إن الشجاعة صفة نادراً ما تتحلى بها شقيقة زوجتي، زوجة لوسيو ألفيرد اسمع لي قليلا . يا إلهي ما أغباك أيها الرجل !

— كلا ، أنا أنا ! في خداع نفسي بأن زوجة لوتشيو ألفيرد تعشقني ، لدرجة أنها تزوجت زوجها . ولكن ماذا تظنه حدث؟ مثال من الروح التي لا تبالي في سبيل التضحية ، كما ستسمع . دعتني ذات مرة إلى دارها ، وكان زوجها متغيباً . وعندما حدثت اللحظة الأولى التي فوجئنا فيها سوياً ، أخبأتني في حجرة شقيقتها السيدة الحولاء ، فاستقبلتني في حياء وخجل ، وبدت كأنها تضحي بنفسها في سبيل شرف أختها . ولم يكن عندي متسع من الوقت لأصيح .. ولكن يا سيدتي العزيزة ، انتظري لحظة . كيف يصدق لوتشيو ذلك . فقد اندفع لوتشيو غاضباً مزمجراً . وتخيل أنت الباقي .

فصاح ميار متعجبا — ماذا ؟ أنت ، بكل ما فيك من ذكاء؟

فقال الآخر — ودوني ؟ لقد رفض مدى بما يلزمني من المال . دعنا من ذلك الحديث أرجوك . على أية حال وازنت بين حقيقة كوني لا أملك فلساً ، وبين عدم رغبتي في الزواج ..

فقاطعه ميار قائلا : — ما ذا ؟ أتزوجتها ؟

— أوه ، كلا ، إنما هي التي تزوجتني . إنها هي التي تزوجت فقط . لقد حدثتها في ذلك وكلمتها بكل صراحة. قلت أيتها السيدة ، إذا أردت اسمي . حسن ، إذاً ، خذيه . إني أكاد لا أعرف ما الذي أفعل به ، أقسم لك . أكان هذا ؟

وجازف ميار قائلا : — إذاً فهذا ما حدث ؟ لقد كان اسمها ألفيرد ، ثم أصبح الآن ...

فضحك الآخر وهو يهب قائماً — تماماً .

وهتف جيجي ميار ، وقد أصبح لا يحتمل أكثر من ذلك وتمالك شجاعته بين يديه وقال : كلا ، اسمع ، لقد تمتعت معك بصباح طيب . وعاملتك كما لو كنت أخي . والآن يجب أن تقدم لي معروفاً . — لعلك تود أن أعرفك زوجتي ؟

— كلا ، شكراً . أود أن تخبرني عن اسمك .

فسأله في دهشة وهو يطرق بإصبعه على صدره ، وكأنه يشك في وجوده — أنا ؟ اسمي؟ ماذا تعني؟ ألا تعرف ؟ ألا تستطيع أن تتذكر؟ فأجاب ميار معترفا في حياء — كلا ، أرجو المعذرة ، حتى أكبر رجل عديم الذاكرة في العالم . ولكني أكاد أقسم أني لم أرك مطلقاً .

— أوه ، عظيم جداً ، عظيم جداً ! يا عزيزي جيجي الصغير ، ضع يدك في يدي . إني أشكرك من أعماق قلبي على حسن

شبابك — ولكني سأذهب دون أن أخبرك . وهذا كل ما هنالك !

فانفجر جيجي ميار صائحاً وقد هب واقفاً على قدميه — ستخبرني ، عليك اللعنة ! لقد أرهقت عقلي طول الصباح ، ولن أدعك ترحل دون أن تخبرني .

فأجابه الآخر في هدوء وثبات — اقتلني ، قطعني إرباً ، ولكني لن أخبرك !

فأخذ ميار مرة أخرى يعدل من لحيته وقال — كن رجلا طيباً . إني لم أجرب مثل هذه التجربة من قبل — فقدان الذاكرة — أنت تعرف . إني أقسم لك أنه شعور مؤلم . تخبرني عن اسمك بحق السماء . — ابحث عنه بنفسك .

— استمع إلي . إن ضعف ذاكرتي لم يمنعني عن السماح لك بالجلوس على مائدتي . وفي الواقع ، حتى إذا لم أكن أعرفك على الإطلاق ، فقد أصبحت الآن عزيزاً لدي . صدقني . إني أشعر بشعور الأخوة نحوك ، وأعجب بك ، وأود أن تظل معي دائماً . تخبرني إذاً عن اسمك .

فقال الآخر في حزم — لا فائدة ترجى من ذلك . أنت تعرف أنك ستنساني إذا ما رحلت . كن عاقلا . أتود أن تحرمني من تلك اللذة التي لم أكن أتوقعها ، لذة تركي إياك دون أن تعرف من يكون ضيفك ؟ كلا .. اذهب .. إنك تطلب الشيء الكثير . إني أرى جيداً أنك لا تملك أية ذاكرة نحوي . فإذا لم تسكن تود أن تجرح شعوري بذلك النسيان ، فدعني أذهب كما جئت

فصاح جيجي بغضب عاصف — اذهب إذاً ، سريعاً . كل ما أطلبه . إني لا أحتمل رؤيتك بعد الآن .

— حسن ، إني ذاهب . ولكن اسمح لي أولا بأن أصافحك يا جيجي الصغير .

فأجاب ميار صائحاً — إني أرفض ، إلا إذا أخبرتني . .

فقاطعه الآخر قائلا — كلا ، كلا ، هذا كل ما هنالك والآن .. إلى الملتقى . وذهب ضاحكا . والتفت إليه وهو يجاهد في نزول المدرج ، وأرسل إليه قبلة في الهواء . . .

محمد فهمي عبد الوهاب

مطبعة الرسالة